

سورة الأنعام

آياتها خمس وستون ومائة ، نزلت بعد الحجر .

وهي مكية إلا الآيات ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ،

وقد روى كثير من المحدثين عن غير واحد من الصحابة والتابعين أن هذه

السورة نزلت جملة واحدة .

مناسبة هذه السورة لما قبلها

الناظر إلى ترتيب السور كلها في المصحف يرى أنه قد روعي في ترتيبها الطول والتوسط والقصر في الجملة ، ليكون ذلك أعون على التلاوة وأسهل في الحفظ ؛ فالناس يبدأون بقراءته من أوله فيكون الانتقال من السبع الطوال إلى المثني فالثاني فالمفصل أنفي للعمل وأدعى إلى النشاط ، ويبدأون بحفظه من آخره لأن ذلك أسهل على الأطفال ، ولأنه قد روعي التناسب في معاني السور مع التناسب في مقدار الطول والقصر ووجه مناسبتها لآخر سورة المائدة من وجوه عدة :

(١) إن معظم سورة المائدة في محاجة أهل الكتاب ، ومعظم سورة الأنعام في محاجة المشركين .

(٢) إن سورة الأنعام قد ذكرت فيها أحكام الأطعمة المحرمة والذبايح بالإجمال ، وذكرت في المائدة بالتفصيل وهي قد نزلت أخيرا .

(٣) إن هذه افتتحت بالحمد وتلك اختتمت بفصل القضاء وبينهما تلازم

كما قال : « وَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ،
 ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى
 أَجَلًا ، وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ
 وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) .

شرح المفردات

الحمد: هو الثناء الحسن والذكر الجليل ، والظلمة: الحال التي يكون عليها كل
 مكان لا نور فيه ، والنور قسمان: حسي وهو ما يدرك بالبصر ، ومعنوي عقلي يدرك
 بالبصيرة ، والجعل: هو الإنشاء والإيداع كالخلق ، إلا أن الجعل مختص بالإيناء
 التكويني كما في هذه الآية ، والتشريع كما في قوله: « مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ
 وَلَا سَائِبَةٍ » الآية ، والخلق عام .

ولم يذكر النور في القرآن إلا مفردا والظلمة إجمعا ، لأن النور واحد وإن
 تعددت مصادره ، والظلمة تحدث مما يحجب النور من الأجسام غير النيرة وهي كثيرة؛
 وكذلك النور المعنوي شيء واحد ، والظلمات متعددة فالخلق واحد لا يتعدد والباطل
 الذي يقابله كثير ، والهوى واحد والضلال المقابل له كثير ، فالتوحيد يقابله التعطيل ،
 والشرك في الألوهية بأنواعه والشرك في الربوبية بضروبه المختلفة .

وقدمت الظلمات في الذكر على النور لأن جنسها مقدم في الوجود فقد وجدت
 مادة الكون وكانت دخانا مظالما أو سديما كما يقول علماء الفلك ، ثم تكونت
 الشمس بما حدث فيها من الاشتعال لشدة الحركة ، وإلى هذا يشير حديث عبد الله

ابن عمرو عند أحمد والترمذى « إن الله خلق الخلق فى ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه نوره اهتدى ، ومن أخطأه ضل » .

وكذلك الظلمات المعنوية أسبق وجودا ، فإن نور العلم والهداية كسبى فى البشر ، وغير الكسبى منه كالوحى ، فتلقيه كسبى وفهمه والعمل به كسبىان أيضا ، وظلمات الجهل والأهواء سابقة على هذا النور « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ويعدلون أى يعدلون به غيره ويجعلونه عديلا مساويا له فى العبادة والدعوة لكشف الضر وجلب النفع ، فهو بمعنى يشركون به ويتخذون له أندادا ، والأجل هو المدة المضروبة للشيء أى المقدار المحدود من الزمان ، وقضاء الأجل : تارة يطلق على الحكم به وضره للشيء كما قضى شعيب عليه السلام أجلا لخدمة موسى له ثمانى سنوات وأجلا اختياريا سنتين ، ويطلق أخرى على القيام بالشيء وفعله كما قال : « فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ » الآية ، وتمترون أى تشكون فى البعث .

الإيضاح

(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) أى الحمد والشكر للذى خلقكم وخلق السموات والأرض فهو المستوجب للحمد بنعمه عليكم ، لا من تعبدون من دونه وتجعلونه له شريكا من خلقه .

والخلاصة — إن المراد بالسموات والأرض العوالم العلوية التى يرى كثير منها فوقنا، وهذا العالم الذى نعيش فيه، وكذلك هو الذى أوجد الظلمات والنور . واختلف العلماء فى المراد منها ، فمن قائل إن المقصود منها ظلمة الليل ونور النهار وإلى هذا جنح ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدى ، وفى ذلك رد على المجوس (الثنوية) الذين

زعموا أن للعالم ريين أحدهما النور وهو الخالق للخير والثاني الظلمة وهو الخالق للشر،
ومن قائل إن المراد منهما الكفر والإيمان وروى هذا عن ابن عباس .
(ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) أى إنه مع استحقاقه الحمد والعبادة لذاته
ولما بين من شئونه العظيمة الخاصة به الموجبة لقصر الحمد والعبادة عليه ، لم يعمل هؤلاء
الكفرة بما يرشد إلى ذلك ، بل عدلوا به سواء وسووه به فى العبادة التى هى أقصى
غاية الشكر .

والخلاصة — كأنه قال أى وهم مع ذلك يعدلون به غيره ويجعلونه مساويا له .
وبعد أن وصف الخالق تعالى بما دل على توحيدِه واستحقاقه للحمد — انتقل
إلى خطاب المشركين الذين عدلوا به غيره فى العبادة مذكرا لهم بدلائل التوحيد
والبعث فقال :

(هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تموتون)
أى هو الذى خلقكم من الطين (التراب الذى يخاطه ماء) فقد خلق أبأكم آدم
من الطين كما خلق سائر الأحياء التى فى هذه الأرض بل خلق كل فرد من أفراد
البشر من سلاله من طين ، فإن بنية الإنسان مكونة من الغذاء ومن ذلك البويضات
التى فى الأتى والحيوان المنوى الذى فى الذكر فكلها مكونة من الدم ، والدم من
الغذاء ، والغذاء من نبات الأرض أو من لحوم الحيوان المتولدة من النبات فالمرجع
إلى النبات ، والنبات من الطين ، والناظر فى كل هذا يعلم جليا أن القادر على كل
هذا لا يعجزه أن يعيد هذا الخلق كما بدأه عند انقضاء آجاله التى قضاهها له فى أجل
آخر يضربه لهذه الإعادة على حسب علمه وحكمته .

والآية ترشد إلى أنه تعالى قضى لعباده أجلا لحياة كل فرد منهم ينتهى
بموته ، وأجلا لإعادتهم وبعثهم بعد موت الجميع وانقضاء عمر الدنيا .
ومعنى كونه مسمى عنده : أنه لا يعلمه غيره ، لأنه لم يطلع أحدا على يوم القيامة ،
لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا .

(وهو الله فى السموات وفى الأرض) أى إنه تعالى هو المتصف بهذه الصفات المعروفة المعترف له بها فى السموات والأرض ، ونظير هذا أن تقول إن حاتم هو حاتم فى طيء وفى جميع القبائل ، أى هو المعروف بالجد المشهور به فى قومه وفى غيرهم .
(يعلم سركم وجهركم) هذا تقرير وتوكيد لما قبله ، لأن الذى يستوى فى علمه السر والعلانية هو الله وحده .

(ويعلم ما تكسبون) من الخير والشر فيحصى ذلك عليكم ليجازيكم به عند معادكم إليه .

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤)
فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي
الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا
الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ، فَآهَلَكْنَا هُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ
قَرْنًا آخَرِينَ (٦)

شرح المفردات

الآيات هنا : آيات القرآن المرشدة إلى آيات الأكوان والمثبتة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والإعراض : التولى عن الشيء ، والحق : هو دين الله الذى جاءهم به خاتم رسله من عقائد وعبادات ومعاملات وآداب ، والأنبياء : ما فى القرآن من وعد ينصر الله لرسله وإظهار لدينه، ووعيد لأعدائه بخذلانهم فى الدنيا وعذابهم فى الآخرة ، والقرن من الناس : القوم المقترنون فى زمن واحد وجمعه قرون ، وقد جاء فى القرآن

مفردا وجمعا ، ومكنه في الأرض أو في الشيء : جعله متمكنا من التصرف فيه ، ومكن له : أعطاه أسباب التمكّن في الأرض كقوله : «وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ» وقوله : «أَوْ لَمْ يُمْكِنَنَّ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ؟» والسماء : المطر ، والمدار : الغريز .

المعنى الجملى

بعد أن أرشد الله تعالى في الآيات السالفة إلى دلائل وحدانيته ، ودل على أنها مع ظهورها لم تمنع الكافرين من الشرك ، وإلى دلائل البعث ، وأنها على شدة وضوحها لم تمنع المشركين من الشك والريب ، وإلى أن الله المتصف بتلك الصفات التي تعرفونها هو الله المحيط علمه بما في السموات والأرض فلا ينبغي أن يشرك به غيره فيهما ، ولكن المشركين جهلوا ذلك وجوزوا أن يكون غير الرب إلها ، بل عبدوا معه آلهة أخرى .

ذكر هنا سبب عدم اهتدائهم بالوحي ، وأنذرهم عاقبة التكذيب بالحق ، ثم كشف لهم فيما بعد شبهاتهم على الوحي وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) أى وما تنزل عليهم آية من آيات القرآن التي من جملتها تلك الآيات الناطقة بتفصيل بدائع صنع الله المنبثة بجزيران أحكام ألوهيته على جميع الكائنات - إلا أعرضوا عنها استهزاء وتكديبا غير متدبرين معناها ولا ناظرين في دلائلها .

ولما بين سبحانه أن شأنهم الإعراض عن الآيات المنزلة رتب عليه قوله :

(فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) أى فبسبب ذلك الإعراض العام عن النظر

في الآيات كذبوا بالحق الذي جاءهم حين جاءهم ولم يترشوا ولم يتأملوا ، لأنهم سدوا

على أنفسهم مسالك العلم .

وهذا الحق الذى كذبوا به هو الدين الذى جاء به خاتم أنبيائه بما اشتمل عليه من آداب وأخلاق وعبادات ومعاملات ، إلى نحو أولئك مما فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم .

(فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون) النبأ الخبير العظيم أى فستكون عاقبة التكذيب أن تحل بهم العقوبات العاجلة التى نطقتم بها الآيات وعيدا لهم من القتل والسبى والجللاء عن البلاد ، ووعدا لرسوله من النصر له وإظهار دينه على الدين كله .

وقد أتاهم ذلك فكان منه ما نزل بهم من القحط ، ومن الخذلان يوم بدر ، ثم تم ذلك يوم الفتح .

وبعد أن توعدهم سبحانه بنزول العذاب بهم بين أن هذا مما جرت به سنته فى المكذبين فقال :

(ألم يروا كم أهلكتنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ؟) أى ألم يعلم هؤلاء الكفار المكذبون بالحق أننا أهلكتنا كثيرا من الأقوام الذين كذبوا الرسل قبلهم بعد أن أعطيناهم من التمكين والاستقلال فى الأرض وأسباب التصرف فيها ما لم نعطيهم مثله ، ثم لم تكن تلك النعم بمانعة لهم من عذابنا لما استحقوه بذنوبهم وعتوهم واستكبارهم .

وذكر بعد هذا ما امتازت به تلك القرون على كفار قريش من النعم الإلهية التى اقتضتها طبيعة بلادهم وخصب تربتها فقال :

(وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم) الإرسال تارة يكون يبعث من له اختيار كما رسال الرسل ، وتارة بالتسخير كما رسال الريح والمطر ، وتارة بترك المنع نحو « إِنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ » أى وسخرنا لهم الأمطار الغزيرة التى تكون الأنهار المترعة بالمياه ، وهديناهم إلى الاستمتاع بها بجعلها

تجربى دائماً تحت مسأكنهم التى يبنونها على ضفافها ، أو فى الجنات والحداثق التى تتفجر خلالها فىتمتعون بالنظر إلى جمالها واستنبات الأشجار والثمار التى يأكلونها ، ويولدون النعم والماشية التى تتغذى من مراعيها .

والخلاصة — إنهم أوتوا من البسطة فى الأجسام والامتداد فى الأعمار والسعة فى الأموال والاستمتاع ببلدات الدنيا مالم يؤته أهل مكة ، ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً فكفروا بأنعم الله ولم يؤمنوا بما جاءهم به أنبيأؤهم بل كذبوهم فاستحقوا العقاب وإلى ذلك أشار بقوله .

(فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين) أى فكان عاقبة أمرهم أن أهلكتنا كل قرن منهم بسبب ذنوبهم التى كانوا يجتريحونها ، وأوجدنا من كل منهم قرناً آخر يعمرزون البلاد ويكونون أجدر بشكران النعمة .

والذنوب التى تدعو إلى الهلاك ضربان :

(١) معاندة الرسل والاستكبار والعتو والتكذيب .

(٢) كفران النعم بالبطر وخط الحق وظلم الضعفاء ومحابة الأقوياء والإسراف فى الفسق والفجور والغرور بالغنى والثروة ، كما جاء فى قوله : « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِيْمُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ . » .

وفى هذه الآية رد على كفران مكة وهدم لغرورهم بقوتهم وثروتهم بإزاء ضعف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وفقيرهم كما حكى الله عنهم فى قوله : « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْبَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

وهؤلاء القوم الذين يخلفون من نزل بهم عذاب الله لا بد أن يختلفوا عنهم فى صفاتهم وإن كانوا من أبناء جنسهم ، فالعبر والحوادث واختلاف الزمن لها تأثير

كبير في النفوس تخفف من غلواء الناس وتقلل من بطشهم وعتومهم ، وفي المشاهدة أكبر دليل على صحة ذلك .

انظر إلى ما فعلته الحرب العظمى الثانية في نفوس الشعوب في الشرق والغرب ، فإنه قد نشأ بعدها جيل أقل بطرا وانعاسا في الشهوة والترف وما ينشأ عنهما من الفسق والفجور من سابقه ، وكذلك في حسن معاملة الناس بعضهم لبعض وحفظ الحقوق والمساواة فيها .

ولا يعلم إلا الله ما سنتهى إليه تلك الحرب الضروس الدائرة رحاها الآن . ولا ما ستمحض عنه من الحوادث الجسام في مستقبل الأمم والشعوب ، ولا ما سيكون لها من التأثير في النظم الاجتماعية والاقتصادية والصلات والروابط بين بعض الأمم وبعض .

وَلَوْ تَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ لَكُمْ لَا يَنْظُرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ جَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (٩) .

شرح المفردات

الكتاب : الصحيفة المكتوبة ومجموعة الصحف في غرض واحد ، والقرطاس (مثلث القاف) الورق الذي يكتب فيه ، والمس كالمس : إدراك الشيء بظاهر البشرة ، وقد يستعمل بمعنى طلب الشيء والبحث عنه ، ويقال لمسه والتَّمَسه وتلمسه ، ومنه « وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ » وسحر أى خداع وتمويه يرى ملاحقة له في صورة الحقائق ، لقضى الأمر أى تم أمر هلاكهم ، لا ينظرون أى لا يهتمون ، اللبس : الستر والتنظية

يقال لبس الثوب يلبسه (بكسر الباء في الأول وفتحها في الثاني) ولبس الحق بالباطل .
 يلبسه (بفتح الباء في الأول وكسرها في الثاني) بمعنى ستره به ، أى جعله مكانه
 ليظن أنه الحق ، ولبست عليه أمره أى جعلته بحيث يلبس عليه فلا يعرفه .

المعنى الجملى

بعد أن أرشد سبحانه في الآيات المتقدمة إلى مادعا إليه الرسول صلى الله عليه
 وسلم من التوحيد والبعث ، ثم ذكر بعدها الأسباب التي دعت قريشا إلى التكذيب ،
 وأنذرهم عاقبة هذا التكذيب بما يحل بهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة ، وأنه
 لا يحول دونه ما هم فيه من قوة وضعف الرسول صلى الله عليه وسلم وتمكنهم في مكة
 وهى أم القرى ، وأهلها القدوة والسادة بين العرب .

وذكر هنا شبهات أولئك الجاحدين المعاندين على الوحى وبعثة الرسول ،
 وبها تم بيان أسباب جحودهم وإنكارهم لأصول الدين الثلاثة . (التوحيد والبعث
 ونبوّة محمد صلى الله عليه وسلم) .

روى ابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن إسحق سبب نزول الآية الثانية قال
 « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام وكلمهم فأبلغ إليهم ، فقال له
 زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ بْنِ الْمُطَلِّبِ وَالنُّضْرُ بْنُ الْحَرِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَعَبْدَةُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثٍ وَأَبِي
 ابْنِ خَلْفٍ وَالْعَاصِمِيُّ بْنُ وَاثِلِ بْنِ هِشَامٍ : لَوْ جَعَلَ مَعَكَ يَا مُحَمَّدُ مَلَكٌ يَحْدُثُ عَنْكَ النَّاسَ
 وَيُرَى مَعَكَ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ : - وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ » .

ورجح بعضهم أن هذا السبب لا يصح في هذه الآية ، لأن اقتراح المعاندين من
 المشركين إنزال الملك مع الرسول مذكور في سور من القرآن أنزلت قبل هذه السورة ،
 فما فيها إنما هو رد على شبهة سبقت وحكيت عنهم ، وكذلك اقتراح إنزال كتاب
 من السماء وإنزال القرآن جملة واحدة مذكور في سورة الفرقان .

الإيضاح

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعجب من كفر قومه به وبما أنزل عليه مع وضوح برهانه وإظهار إعجازه ، وكان يضيق صدره لذلك ويبلغ منه الحزن والأسف . كل مبلغ كما قال في سورة هود « فَلَمَّا كَ تَارَكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَائِكَةٌ » .

فبين الله أسباب ذلك ومناشئته من طباع البشر وأخلاقهم ليعلم أن الحجة مهما تكن ناهضة فإنها لا تجدى إلا عند من كان مستعدا لها وزالت منه موانع الكبر والعناد . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة :

(ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فامسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) أى إن علة تكذيبهم بالحق هى إعراضهم عن الآيات وإقبال باب النظر والاستدلال لاختفاء الآيات فى أنفسها وقوة الشبهات التى تحوم حولها ، فلو أننا نزلنا عليك كتابا من السماء فى قرطاس فأروه نازلا فيها بأعينهم ولمسوه عند وصوله إلى الأرض بأيديهم لقال الذين كفروا منهم : ما هذا الذى رأيناه ولمسناه إلا سحر بين فى نفسه ، وإنما خيل إلينا أننا رأينا كتابا ولمسناه ، وما تم كتاب نزل ولا قرطاس رأتى ولا لمس ، وتلك ممثلة أمثالهم فى آيات الأنبياء من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وإنما قال لمسوه بأيديهم ليبين أن المراد باللمس المعنى الأول لا الثانى ، ومن ثم قال فتادة فعانوه ومسوه بأيديهم ، وقال مجاهد فسوه ونظروا إليه ؛ واللمس أقوى اليقينيات الحسية وأبعدها عن الخداع ، لأن البصر يخدع بالتخيل ، وجاء فى سورة الحجر : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتِ [حبست ومنعت] أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » .

(وقالوا لولا أنزل عليه ملك) كان لكهبار مكة اقتراحان تقدموا بهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن مختلفة :

(١) أن ينزل على الرسول ملك من السماء يكون معه نذيرا يرونه ويسمعون كلامه ، وإلى هذا تشير الآية .

(٢) أن ينزل الملك عليهم بالرسالة من ربهم .

والاقتراح الأول مبنى على اعتقاد أن أرقى البشر عقلا وأخلاقا وأدبا وهم الرسل عليهم السلام ليسوا بأهل لأن يكونوا رسلا بين الله وبين عباده ، لأنهم بشر يأكلون ويشربون كما جاء في سورة المؤمنون « وَقَالَ الْمَلَأُ مِنَ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الآخِرَةِ وَأُتِرَفَنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا : مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا تُخَاسِرُونَ » .

وقد ردَّ الله تعالى الاقتراحين من وجهين :

(١) (ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون) أى لو أنزلنا ملكا كما اقترحوا لقضى الأمر بإهلاكم ثم لا يؤخرون ولا يمهلون ليؤمنوا ، بل يأخذهم العذاب عاجلا كما مضت به سنة الله فيمن قبلهم ، قال ابن عباس : ولو أتاهم ملك في صورته لأهلكناهم ثم لا يؤخرون .

(٢) (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) أى لو جعل الرسول ملكا لجعل متمثلا في صورة بشر ليمكنهم رؤيته وسماع كلامه الذى يبلغه عن الله تعالى ، ولو جعله ملكا في صورة بشر لاعتقدوا أنه بشر لأنهم لا يدركون منه إلا صورته وصفاته البشرية التى تمثل بها ، وحينئذ يقعون في نفس اللبس والاشتباه الذى يلبسون على أنفسهم باستنكار جعل الرسول بشرا ، ولا ينفكون

يقترحون جعله ملكا ، وهم قد كانوا فى غنى عن ذلك ، وهذا شأن كثير من الناس يوقعون أنفسهم فى المشكلات بسوء صنيعهم ثم يجارون فى الخلف منها .

وذكر البخارى فى تفسير قضاء الأمر عدة وجوه :

(١) أن سنة الله قد جرت بأن أقوام الرسل إذا اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا بها

يعذبهم الله عذاب الاستئصال ، والله لا يريد أن يستأصل هذه الأمة التى

بعث فيها خاتم رسله نبي الرحمة « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

(٢) أنهم لو شاهدوا الملك بصورته الأصلية لزهقت أرواحهم من هول

ما يشاهدون .

(٣) أن رؤية الملك بصورته آية ملجئة يزول بها الاختيار الذى هو قاعدة

التكليف .

(٤) أنهم حين اقترحوا ما لا يتوقف عليه الإيمان ثم أعطوه ولم يجد ذلك معهم

نفا دل ذلك على منتهى العناد الذى يستدعى الإهلاك وعدم النظرة .

وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرِيسُلٍ مِّنْ قَبْلِكَ خَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ

مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١) .

شرح المفردات

الهزؤ : (بضمين أوضم فسكون) والاستهزاء : السخرية ، والاستهزاء بالشخص :

احتقاره وعدم الاهتمام بأمره ، وحقاق به المكروه يحيق حيقا : أحاط به فلم يكن له

منه مخلص .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف اقتراحاتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنهم تارة يطلبون إنزال ملك مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخرى يطلبون إنزال ملك بالرسالة ، وكان مبنى هذه المقالة الاستهزاء ، وكان قلب الرسول يضيق بها ذرعا عند سماعه إياها .

ذكر هنا ما يخفف عنه ما يلاقيه منهم من سوء الأدب ومن الهزؤ والسخرية ، فأبان له أنك لست ببدع من الرسل ، فإن كثيرا منهم لاقوا من أقوامهم مثل ما لاقيت ، بل أشد من ذلك وأنكى ، فأنزل الله بهم من العذاب ما يستحقونه كفاء أفعالهم الشنيعة وجراتهم على من اصطفاهم ربهم من خلقه ، ثم أمر هؤلاء المكذبين بأن يسيروا في الأرض ليروا كيف كانت عاقبة المكذبين لأنبيائه .

الإيضاح

(ولقد استهزى برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) أخبر الله رسوله بأن الكفار قد استهزؤا برسول كرام قبلك كما جاء في قوله : « وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » فما تراه من استهزاء كفار قريش بك ليس ببدع منهم بل هم جزوا فيه على آثار أعداء الرسل قبلك ، وقد حل بأولئك الساخرين العذاب الذى أنذرهم إياه أولئك الرسل جزاء على سوء صنيعهم ، وفى الآية وجوه من العبرة :

- (١) تعليم النبي صلى الله عليه وسلم سنن الله فى الأمم مع رسلهم .
- (٢) تسلية له عن إيذاء قومه له .

(٣) إشارة له بحسن العاقبة وما سيكون له من الغلبة والسلطان ، وما سيحل بأولئك المستهزئين من الخزى والنكال ، وقد أهلكهم الله وأمتن على نبيه بذلك

في سورة الحجر « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » والمشهور أنهم كانوا خمسة من رؤساء قريش هلكوا كلهم في يوم واحد .

وخالصة المعنى — هون عليك ماتلقى من هؤلاء المستخفين بحقك في وفي طاعتي وامنض لما أمرتك به من الدعاء إلى توحيدى والإذعان لطاعتي ، فإنهم إن تمادوا في غيرهم نسلك بهم سبيل أسلافهم من سائر الأمم ونعجل النعمة لهم وتحل بهم المثلاث .

ولما كان ما يحل بالمستهزين بالرسول من الهلاك بموجب سنة الله المطردة فيهم ، قد يكون موضعاً للريبة والشك لديهم إذ هم يحولون التاريخ ولا يأخذون خبره بالتسليم أمر الله نبيه بأن يرشدهم إلى الطريق الذى يوصلهم إلى علم ذلك بأنفسهم فقال :

(قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى قل لأولئك المكذبين الجاحدين حقيقة ما جئتهم به : سيروا فى الأرض كما هو دأبكم وعادتكم وتنقلوا فى ديار أولئك القرون الذين مكناهم فى الأرض ومكنا لهم ما لم تمكن لكم ، ثم انظروا فى أثناء رحلاتكم آثار ما حل بهم من الهلاك وتأملوا كيف كانت عاقبتهم بما تشاهدون من آثارهم وما تسمعون من أخبارهم ، ثم اعتبروا إن لم تهكم حلومكم ولم تزجركم سبحانه الله عليكم واحذروا مثل مصارعهم واتقوا أن يحل بكم مثل ما حل بهم .

قُلْ لِمَنْ مَنَافِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلْ لِلَّهِ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ
لِيَجْزِيََكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَارَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣)
قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَبِئْسَ مَا تَحْكُمُونَ وَاللَّهُ يَخْتَارُ مَا يُؤْتِيهِ الْغَنَاءُ وَلَا يَخْشَى الْفَقْرَ وَلَا يُؤْتِيهِ الْغَنَاءُ وَلَا يَخْشَى الْفَقْرَ
قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ
 عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ
 فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)
 وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ
 شَهَادَةً؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ
 بِهِ وَمَنْ بَلَغَ، أَلَيْسَ لَكُمْ لَشَاهِدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ آخَرُ؟ قُلْ لَا أَشْهَدُ،
 قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدُ، وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) .

شرح المفردات

كتب على نفسه : أى أوجب إيجاب فضل وكرم ، سكن : من السكون ضد
 الحركة، وفيه اكتفاء بما ذكر عما يقابله أى له ما سكن وما تحرك كما جاء في قوله تعالى
 «سَرَابِيلٌ تَقِيكُمُ الْحَرَّ» أى والبرد، والولى : الناصر، ومتولى الأمر: المتصرف فيه ،
 فاطر السموات والأرض أى مبدعها على غير مثال سابق ، وأصل الفطر: الشق، ومنه
 « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وهو يطعم ولا يطعم ، أى هو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد،
 يصرف عنه أى يبعد عنه ، رحمه أى بإنجائه من الهول الأكبر، المس: أعم من اللبس
 فيقال مسه سوء والكبر والعذاب والتعب أى أصابه ، والضر: الألم والحزن والخوف
 وما يفضى إليها أو إلى أحدها ، والنفع: اللذة والسرور وما يفضى إليهما أو إلى أحدهما ،
 والخير: ما كان فيه منفعة حاضرة أو مستقبلية ، والشر: ما لا منفعة فيه البتة أو ما كان
 ضره أكبر من نفعه، قال تعالى: « وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، وَعَسَىٰ
 أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ » والقهر: الغلبة والإذلال ، وشهادة الشيء: حضوره
 ومشاهدته ، والشهادة به: الإخبار به عن علم ومعرفة واعتقاد مبنى على المشاهدة

بالمبصر أو بالعقل والوجدان، والإنذار: التخويف، واكتفى به عن ذكر البشارة لمناسبتة للمقام أى لأنذركم به يا أهل مكة وسائر من بلغه القرآن ووصل إليه من الأسود والأحمر، أو لأنذركم به أيها الموجودون ومن سيوجد إلى يوم القيامة، مما تشركون أى من الأصنام .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى الآيات السابقة أصول الدين الثلاثة: التوحيد والبعث والجزاء ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر شبهات الكافرين على الرسالة وبين ما يدهضها، ثم أرشد إلى سننه تعالى فى أقوام الرسل المكذبين وأن عاقبتهم الهلاك والاستئصال والحزى والنكال تسلياً لرسوله صلى الله عليه وسلم وتثبيتاً لقلبه وإعانة له على المضى فى تبليغ رسالته .

ثم ذكر هنا هذه الأصول الثلاثة بأسلوب آخر: أسلوب السؤال والجواب بهرهم فيه بالحجة ودلهم على واضح الحجة تفننا فى الحجاج فى المواضع الهامة، فإن الأدلة إذا تضافرت على مطلوب واحد كان لها فى النفس قبول أيعا قبول، وكذلك أساليب الحجاج إذا تنوعت دفعت عن السامع السأم وجعلته ينشط لسماع ما يلقى إليه، فهو إذا لم يعقل الدليل الأول أو عمى عليه أسلوبه رأى فى الدليل الثانى ما ينير له طريق المطلوب أو رأى فى الأسلوب الثانى ما يكفيه مثونة البحث فى الدليل الأول فهو فى غنى بما يكون أمامه عن أن يبحث عن فائت أو يلجأ إلى غائب، ومن ثم نرى الخطباء المفلتقين والعلماء المبرزين ينوعون أساليب حجاجهم ويكثرنون البرهانات على المطلوب الواحد ليكون ذلك أدمى إلى الإقناع وأقرب إلى الاقتناع .

الإيضاح

(قل لمن ما فى السموات والأرض؟) أى قل أيها الرسول قومك الجاحدين

لرسالتك المعرضين عن دعوتك: لمن هذه الخلقوات عنونها وسفليها؟

وقد كانت العرب تؤمن بأن الله خالق السموات والأرض وأن كل ما فيهما ملك وعبيد له ، كما قال تعالى : « وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » .

والمقصود من السؤال التبكيت والتوبيخ .

(قل لله) هذا تقرير للجواب نيابة عنهم أو إجابة لهم إلى الإقرار بأن الكل لله سبحانه ولا خلاف بيني وبينكم في ذلك ولا تقدرُوا أن تضيفوا شيئاً آخر إليه : وإتيان السائل بالجواب يحسن إذا كان ما يأتي به هو عين ما يعتقده المسئول وما يجيب به إن أجاب ، وإنما يسبقه إليه ليبنى عليه شيئاً من لوازمه مما يجمله المسئول أو يغفل عنه أو ينكره لجهله أو غفلته من كونه لازماً لما يعرفه ويعتقده .

(كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) أى إن الله الذى تقرون معى بأنه مالك السموات والأرض قد أوجب على ذاته العلية الرحمة بمخلقه ، إذ أفاض عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن مقتضى هذه الرحمة أن يجمعنكم إلى يوم القيامة ، ذلك اليوم الذى لاشك فى مجيئه لوضوح أدلته وسطوع براهينه ، للحساب والجزاء على الأعمال إذ أنه وازع نفسى لا يتم تهذيب النفوس إلا به فهو يمنع الظلم وهضم الحقوق وإيذاء الناس وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، خوفاً من هول ذلك اليوم الذى تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها .

ولما كان مقتضى الرحمة والفضل أعم وأسبق من مقتضى العدل كان جزاء الظالمين المسيئين على قدر استحقاقهم ، ومنهم من يعفو الله عنه ، فالجزاء على الإساءة قد ينقص منه بالعفو والمغفرة ولا يزداد فيه ، وإنما الزيادة فى الجزاء على الإحسان : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا » .

وبيان الدين لهذا النوع من الجزاء رحمة أيضاً ، فما مثله إلا مثل الحكومة العادلة تدين للأمة ما توادخ عليه من الأعمال الضارة وما تكفى به من يصدق فى خدمتها

ويرقى إلى سماء العزة والكرامة ، روى الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله لما خلق الخلق كتب كتابا عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » والمراد بالسبق هنا كثرة الرحمة وشمولها كما يقال غلب على فلان الكرم والشجاعة إذا كثرا منه .

وإخلاصة — أنه لما قال كتب على نفسه الرحمة ، فكأنه قيل وما تلك الرحمة ؟ فقيل ليجمعنكم إلى يوم القيامة ، ذلك أنه لولا خوف العذاب يوم القيامة لحصل الفساد في الأرض واختلت نظم الاجتماع وأكل القوى الضعيف ولا وازع ولا زاجر ، فصار التهديد بهذا اليوم من أسباب الرحمة .

(الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) خسارة الأنفس إفساد فطرتها وعدم اهتدائها بما منحها الله من أنواع الهدايات ، فالمقلدون خسروا أنفسهم لأنهم حرموها استعمال نعمتى العقل والعلم .

أى أخص هؤلاء الذين خسروا أنفسهم بالتذكير والذم والتوبيخ بين من يجمعون إلى يوم القيامة ، إذ هم خسروا أنفسهم في الدنيا لا يؤمنون بالآخرة ، فهم كما ينظرون ويستدلون ، وإن هم فعلوا فقد بهم ضعف الإرادة عن احتمال لوم اللاتمين واحتقار الأهل والمعاشرين .

وإخلاصة — أن الفوز والفلاح في الدين والدنيا لا يتم إلا بالعلم الصحيح والعزيمة الحافظة إلى العمل بالعلم ، فمن خسر إحدى الفضيلتين فقد خسر نفسه ، فردا كان أو أمة ، فما بال من خسرها معا .

(وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم) أى لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وله ما سكن فى الليل والنهار ، وخص هذا بالذكر وإن كان داخلا فى عموم ما فى السموات والأرض ، تنبيها إلى تصرفه تعالى بهذه الخفايا ولا سما إذا جن الليل وهدأ الخلق .

وبعد أن ذكر الله تعالى تصرفه في الخلق دقيقه وجليله كما يشاء كما هو شأن الربوبية الكاملة، ذكر أنه هو السميع العليم أى المحيط سمعه بكل مامن شأنه أن يسمع مهما يكن خفياً عن غيره، فهو يسمع ديب النملة في الليلة الظلماء، والمحيط علمه بكل شيء « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » .

والخلاصة — أنه تعالى لا تدق عن سمعه دعوة داع، أو تعزب عن علمه حاجة محتاج حتى يخبره بها الأولياء أو يقنعه بها الشفعاء .

وبعد هذا القول الذى أمر الله رسوله به للتذكير بأنه المالك لكل شيء والمُدبّر لكل شيء إذ هو سميع لكل شيء ولا يعزب عن علمه شيء — أمره هنا بقول آخر لازم لما سبق، وهو وجوب ولايته تعالى وحده والتوجه إليه دون سواه فى كل ما هو فوق كسب البشر والاعتماد على توفيقه فيما هو من كسبهم فقال :

(قل أغير الله أتخذ ولياً ؟) أى قل لهم لا أطلب من غيره نفعاً ولا ضراً لافعلاً ولا منعا فيما هو فوق كسبه وتصرفه الذى منحه الله لأبناء جنسه، أما تناصر الخلقين وتولى بعضهم بعضاً فيما هو من كسبهم العادى فلا يدخل فى عموم الإنكار الذى يفهم من الآية، فقد أثنى الله على المؤمنين بأن بعضهم أولياء بعض .

وقد كان المشركون من الوثنيين ومن طراً عليهم الشرك من أهل الكتاب يتخذون معبوداتهم وأنبياءهم وصلحاءهم أولياء من دون الله يتوجهون إليهم بالدعاء ويستغيثون بهم ويستشفعون بهم عند الله فى قضاء حاجاتهم من نصر على عدو وشفاء من مرض وسعة فى رزق إلى نحو أولئك .

وهذا بلا شك عبادة وشرك بالله لاعتقادهم أن حصول المطلوب من غير أسبابه العادية قد كان بمجموع إرادة هؤلاء الأولياء وإرادة الله .

ويلزم هذا أن إرادة الله ما تعلقت بفعل ذلك المطلب إلا تبعاً لإرادة الولى الشافع أو المتخذ ولياً وشفيعاً .

(فاطر السموات والأرض) أى إنه تعالى أوجدهما على غير مثال سابق، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ما عرفت ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني عريبان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أى ابتدعتها .

وقد كانت المادة التى خلقت منها السموات والأرض كتلة واحدة دخانية ، ففتق رتقها وفصل منها أجرام السموات والأرض وهذا لا شك أنه ضرب من الفطر والشق، قال تعالى « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا » .

وفى ذلك تعريض بأن من فطر السموات والأرض بمحض إرادته بدون تأثير مؤثر ولا شفاعاة شافع ينبغى ألا يتوجه إلى غيره بالدعاء ولا يستعان بسواه فى كل ما وراء الأسباب ، وقد أكد هذا المعنى وزاده تشبيها بقوله :

(وهو يطعم ولا يطعم) أى إنه يرزق الناس الطعام وليس هو بحاجة إلى من يرزقه ويطعمه ، لأنه منزه عن الحاجة إلى كل ما سواه ، أيا كان نوعها .

وفى هذا إيحاء إلى أن من اتخذوا أولياء من دونه من البشر محتاجون إلى الطعام ولا حياة لهم بدونه ، وأن الله هو الذى خلق لهم الطعام فهم عاجزون عن خلقه ، وعاجزون عن البقاء بدونه ، فأحرى بهم ألا يتخذوا أولياء مع الغنى الرزاق الفعال لما يريد .

وإذا كان الإنكار توجه إلى البشر فأولى به أن يتوجه إلى الأصنام والأوثان لأنها أضعف من البشر، إذ قد اتفق العقلاء على تفضيل الحيوان على الجماد ، والإنسان على جميع أنواع الحيوان .

(قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم) أى قل لهم بعد أن استبانتم لديكم الأدلة على وجوب عبادة الله وحده وعدم اتخاذ غيره وليا : إني أمرت من ربي للموصوف بحليل الصفات أن أكون أول من أسلم إليه واتقاد لديه من تلك الأمة التى بعثت فيها ، فلا أدعو إلى شيء إلا كنت أول مؤمن به سائر على نهجه .

(ولا تكونون من المشركين) أى وقيل لى بعد إسلام الوجه له : لا تكونون من المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء ليقر بهم إلى زنى .

وخلاصة ذلك — أئى أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك .

و بعد أن أمره الله بهذا القول المبين لأساس الدين ، و بين أنه مأمور به كغيره ، أمره بقول آخر فيه بيان لجزء من خالف الأمر والنهى السالفين فقال :

(قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) أى قل لهم إن فرض وقوع العصيان منى فإنى أخاف أن يصيبنى عذاب ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة الذى يتجلى فيه الرب على عباده ويحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم ويجازيهم بما يستحقون .

وفى الآية إشارة إلى أن هذا يوم لا محابة فيه لأحد مهما كان عظيما ، وأنه لا تنفع فيه شفاعة الشافعين بل الأمر يومئذ لله فلا سلطان لغيره يتكل عليه من يعصيه ظنا منه أنه يخفف عنه العذاب أو ينجيه ، وإذا كان خوف النبي صلى الله عليه وسلم من العذاب على المعصية منتظيا لوجود العصمة ، فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له فى جميع الأحوال .

(من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين) أى من يحول عنه هذا العذاب فى ذلك اليوم فقد رحمه الله ، إذ أنجاه من الهول الأكبر ، ومن نجا منه فقد دخل الجنة ، والنجاة من العذاب يومئذ والتمتع بالنعيم فى دار البقاء هو الفوز المبين الظاهر .

وقد سبق أن قلنا إن الفوز إما ينال بحصول مطلوبين : أحدهما سلبى وهو النجاة من العذاب . والثانى إيجابى وهو الظفر بالنعيم القيم فى الجنة .

(وإن يمسك الله بضرة فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسك بخير فهو على كل شىء قدير) أى وإن يصبك أيها الإنسان ضر كمرض وفقر وحزن وذل اقتضته سنة

الله فلا يكشف له ولا يضارف يصرفه عنك إلا هو ، دون الأولياء الذين يتخذون من
دونه ويتوجه إليهم المشرك بكشفه - وهو إما أن يكشفه عنك بتوفيقك للأسباب
الكسبية التي تزيهه ، وإما أن يكشفه بغير عمل منك ، بل بطفه وكرمه فله الحمد
على نعمه المتظاهرة التي لا حد لها - وإن يمسك بخير كصححة وغبى وقوة وجاه فهو
قادر على حفظه عليك كما قدر على إعطائه إياك ، وهو القدير على كل شيء ، أما أولئك
الأولياء الذين اتخذوا من دونه فلا يقدرون على مسك بخير ولا ضر .

فعلى المؤمن الصادق في إيمانه ألا يطلب شيئاً من أمور الدنيا والآخرة من كشف
ضر وصرف عذاب أو إيجاد خير ومنح ثواب - إلا من الله تعالى وحده دون غيره
من الشفعاء والأولياء الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

وهذا الطلب إما طلب بالعمل ومراعاة الأسباب التي اقتضتها سنة الله في الخلق
ودل عليها الشرع وهدى إليها العقل ، وإما بالتوجه إلى الله ودعائه كما ندب إلى ذلك
كتابه الكريم وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »
وبعد أن أثبت الله لنفسه كمال القدرة أثبت له كمال الساطان والتسخير لجميع
عباده والاستعلاء عليهم مع كمال الحكمة والعلم المحيط بخفايا الأمور ليرشدنا إلى أن من
اتخذ الأولياء فقد ضل ضلالاً بعيداً فقال :

(وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير) أى إن الرب من شأنه العزة
والساطان والعلو والكبرياء وهو الحكيم الخبير ، فلا ينبغي للمؤمن أن يتخذ ولياً من
عباده المقهورين تحت سلطان عزته المذللين لسنته التي اقتضتها حكمته وعلمه بتدبير
الأمر في خلقه .

والله جلت قدرته لم يجعل من خلقه شريكاً له في التصرف ولا في كونه يدعى
معه ولا وحده لكشف ضر ولا جلب نفع كما قال تعالى : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ
أَحَدًا » وقال : « قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ
عَنْكُمْ وَلَا نَحْوِيلاً » .

وخلاصة المعنى — أنه تعالى هو الغالب عباده العالى عليهم بتدليله لهم وخلقه إياهم ، فهو فوقهم بالقهر وهم دونه ، وهو الحكيم فى تدبيره ، الخبير بمصالح الأشياء ومضارها ، ولا تخفى عليه خوافى الأمور ولا بوادئها ولا يقع فى تدبيره خلل ، ولا فى حكمته دَخَل .

وقد ختم الله هذه الأوامر القولية المبيننة لحقيقة الدين وأدائه بشهادة الله لرسوله وشهادة رسوله له فقال :

(قل أى شىء أكبر شهادة؟ قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل كفار قريش : أى شىء شهادته أكبر شهادة وأعظمها وأجدر أن تكون أصحابها وأصدقها؟ ثم أمره بأن يجيب عن هذا السؤال بأن أكبر الأشياء شهادة هو من لا يجوز أن يقع فى شهادته كذب ولا زور ولا خطأ وذلك هو الله تعالى ، وهو الشهيد بينى وبينكم وقد أوحى إلى هذا القرآن من لدنه لأنذركم به عقابه على تكذيبى فيما جئت به مؤيداً بشهادته سبحانه ، وأنذر من بلغه هذا القرآن ، إذ كل من بلغه فهو مدعو إلى اتباعه حتى تقوم القيامة .

وشهادة الله بين الرسول وقومه ضربان : شهادته برسالة الرسول ، وشهادته بصدق ما جاء به ، والأول أنواع ثلاثة :

(١) إخباره بهانى كتابه بنحو قوله « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » وقوله « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » .

(٢) تأييده بالآيات الكثيرة التى من أعظمها القرآن ، فهو المعجزة الدائمة بما ثبت من عجز البشر عن الإتيان بسورة من مثله ، وبما اشتمل عليه من أخبار الغيب ووعد الرسول والمؤمنين بنصر الله وإظهارهم على أعدائهم .

(٣) شهادة كتبه السابقة له وبشارة الرسل السابقين به ، ولا تزال هذه الشهادة فى كتب اليهود والنصارى .

والثاني ثلاثة أنواع أيضا :

(١) شهادة كتبه بذلك كقوله « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ » .
 (٢) ما أقامه من الآيات في الأنفس والآفاق مما يدل على توحيده واتصافه بصفات الكمال .

(٣) ما أودعه جل شأنه في القطرة البشرية من الإيمان بالله واحد له صفات الكمال وبقاء النفس .

والمختصرة — أن شهادته تعالى هي شهادة آياته في القرآن ، وآياته في الأكوام وآياته في العقل والوجدان اللذين أودعهما في نفس الإنسان .

أخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن ابن عباس مرفوعا قال : « من بلغه القرآن فكأنما شافهته به » ثم قرأ : (وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ) .
 وأخرج ابن المنذر وابن جرير وأبو الشيخ قال : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي بن كعب قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسارى فقال لهم : هل دعيتم إلى الإسلام ؟ قالوا لا ، فغلب سبيلهم ثم قرأ : - وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به - ثم قال : خلوا سبيلهم حتى يأتوا مأمنين من أجل أنهم لم يدعوا » .

ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالشهادة له بالوحدانية وبالبراءة من قوهم وشهادتهم بالشرك فقال :

(أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون) بدأ الجملة بالاستفهام الدال على الإنكار والاستبعاد لما تضمنته ، ثم أمر نبيه أن يجيب بأنه لا يشهد كما يشهدون ، ثم أمره أمرا آخر بأن يشهد بنقيض ما يزعمون ويتبرأ مما يزعمون فيصرح بأن الإله لا يكون إلا واحدا ، ويتبرأ مما يشركون به من الأصنام والأوثان وغيرها .

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ الَّذِينَ
 خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
 جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تُزْعَمُونَ (٢٢)
 ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَبْتَهِمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) أَنْظُرْ
 كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) .

المعنى الجملى

روى أن الكفار سألوا اليهود والنصارى عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم
 فأنكروا أن فى التوراة والإنجيل شيئاً يدل على نبوته ، فبين الله فى الآية السابقة أن
 شهادة الله على صحة نبوته كافية فى نبوتها وتحققها ، ثم بين فى هذه الآية كذبهم
 فى ادعائهم أنهم لا يعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم ، فهم يعرفونه بالنبوة والرسالة كما
 يعرفون آبائهم ، فقد روى أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال عمر
 لعبد الله بن سلام : أنزل الله على نبيه هذه الآية فكيف هذه المعرفة ؟ فقال
 ياعمر : لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابني ، ولأنا أشد معرفة بمحمد مني
 بابني لأني لا أدري ما صنع النساء ، وأشهد أنه حق من الله .

الإيضاح

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون آبائهم) أى إن اليهود والنصارى
 يعرفون أن محمداً النبى الأمى خاتم الرسل كما يعرفون آبائهم ، لأن نعمته فى كتبهم واضح
 ظاهر فلا يشكون فيه على حال ، ثم بين السبب فى إنكار هؤلاء المنكرين فقال :
 (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) أى إن علة إنكار من أنكروا نبوة

محمد صلى الله عليه وسلم من علماء اليهود كهلة من أنكروا من المشركين بعد ظهور آياتها ، بل أنكروا ما هو أظهر منها وهي وحدانية الله تعالى ، إنهم خسروا أنفسهم فهم يؤثرون ما لهم من الجاه والمكانة والرياسة في قومهم على الإيمان بالرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم ، علما منهم بأنهم إذا آمنوا سلبوا الرياسة وجعلوا مساوين لسائر المسلمين في سائر الأحكام والعاملات .

وكذلك كان بعض رؤساء قريش يعز عليه أن يؤمن فيكون تابعا ومرعوسا ويكون مثله مثل بلال الحبشى وصهيب الرومى وغيرهما من فقراء المسلمين .

فهؤلاء الذين نزلت فيهم هذه الآية خسروا أنفسهم لضعف إرادتهم لا لفقدها العلم والمعرفة ، لأن الله أخبر عنهم أنهم على علم ومعرفة .

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته) لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا ، كمن زعم أن له ولدا أو شريكا أو أن غيره يدعى معه أو من دونه أو يتخذ وليا له يقرب إليه زلفى ويشفع للناس عنده ، أو زاد في دينه ما ليس منه ، أو من كذب بآياته المنزلة كالقرآن ، أو آياته الكونية الدالة على وحدانيته أو التي يؤيد بها رسله .

وإذا كان كل منهما بالغا غاية القبح وصاحبه يعد مفتريا ظلما ، فما حال من جمع بينهما فكذب على الله وكذب بآياته المثبتة للتوحيد والمثبتة للرسالة .

ثم بين سبحانه عاقبة الظالمين وسوء منقلبهم فقال :

(إنه لا يفلح الظالمون) أى إن الظالمين عامة لا يفوزون في عاقبة أمرهم يوم الحساب والجزاء بالنجاة من عذاب الله ولا بنعيم الجنة ، فكيف تكون عاقبة من افترى على الله الكذب وكذب بآياته فكان أظلم الظالمين .

(ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟) أى واذا ذكر لهم أيها الرسول يوم نحشرهم جميعا على اختلاف درجاتهم .

في ظلم أنفسهم وظلم غيرها ثم تقول للذين أشركوا منهم وهم أشدّهم ظلماً : أين الشركاء الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم أولياؤكم من دون الله تستعينون بهم كما يستعان به ويُدعون كما يُدعى وأنهم يقرّبونكم إليه زلفى ويشفعون لكم عنده فأين هم؟ فلا يُرون معكم؟ كما جاء في الآية الأخرى « وَمَا تَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » .

(ثم لم تكن فتنتم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) الفتنة هنا الشرك أى ثم لم تكن عاقبة هذا الشرك إلا أن أقسموا بالله يوم القيامة أنهم ما كانوا مشركين ، وظاهر الآيات يدل على أنهم كانوا ينكرون في بعض مواقف الحشر شركهم بالله توهما منهم أن ذلك ينفعهم كما جاء في هذه الآية ، ويعترفون به في بعض آخر كما جاء في قوله : « هُوَ لَاءَ شُرَكَائِنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ » وفي قوله : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » .

وروى عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية وعن قوله : (ولا يكتمون الله حديثًا) فقال : أما قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا تعالوا لنجدد (قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) فحتم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم (ولا يكتمون الله حديثًا)

وقال الزجاج تأويل هذه الآية حسن في اللغة لا يعرفه إلا من وقف على معانى كلام العرب ، وذلك أنه تعالى بين كون المشركين مفتونين بشركهم متهالكين في حبه ، فذكر أن عاقبة كفرهم الذى لزموه أعمارهم وقتلوا عليه وافتخروا به وقالوا إنه دين آبائنا - لم تكن إلا الجحود والتبرؤ منه والخلف على عدم التدين به ، ومثاله أن ترى إنسانا يحب شخصا مذموم الطريقة ، فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه ، فيقال له ما كانت محبتك (عاقبة محبتك) لفلان إلا أن تبرأت منه وتركته .

وعلى هذا فالفتنة هى شركهم فى الدنيا كما فسرها ابن عباس ويكون فى الكلام تقدير مضاف هو كلمة (عاقبة) كما قدمنا ذلك .
 (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) هذا تعجب من كذبهم الصريح بانكار صدور صدور الإشراف عنهم فى الدنيا .
 (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى انظر كيف كذبوا باليمين الفاجرة بانكار صدور ما صدر عنهم ؟ وكيف ذهب عنهم ما كانوا يفترونه من الإشراف حتى نفوا صدورهم عنهم بتاتا وتبرءوا منه غاية البراءة ؟ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
 وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوهَا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ
 يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَهُمْ
 يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦) .

شرح المفردات

الأكنة واحدها كنان كأسنه وسنان : وهو الغطاء ، والوقر (بالفتح) الثقل فى السمع ، والآية : العلامة الدالة على صدق الرسول ، يجادلونك : يخاصمونك ، وينازعونك ، والأساطير واحدها إسطورة وأسطورة : وهى الخرافات والترهات ، والنأى عنه : يشمل الإعراض عن سماعه ، والإعراض عن هدايته .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال الكفار فى الآخرة وذكر ما يكون منهم من تلجج واضطراب ، فتارة ينكرون شركهم بالله وأخرى يعترفون ، وذكر ما يواجهون به من اللوم والتقريع على الشركاء الذين اتخذوهم أولياء وشفعاء .
 ذكر هنا ما يوجب اليأس من إيمان بعض منهم لوجود الموانع الصادقة عنه ،

فهما توالت الآيات والنذر لا تجدى معهم شيئا ، إذ الحجب كثيفة والأغطية سميكة ،
فاختراقها عسير والوصول إليها في حكم المستحيل .

قال ابن عباس : حضر عند النبي صلى الله عليه وسلم أبو سفيان والوليد بن المغيرة
والنضر بن الحرث والحرث بن عامر وأبو جهل في جمع كثير واستمعوا إلى النبي صلى
الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ، فقالوا للنضر يا أبا قتيلة ما يقول محمد ؟ ، فقال : والذي
جعلها (الكعبة) بيته ما أدري ما يقول إلا أنى أراه يحرك شفثيه ويتكلم بأساطير
الأولين مثل ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية ، وكان النضر كثير الحديث
عن القرون الأولى يحدث قريشا بما يستملحونه ، قال أبو سفيان : إنى لأرى بعض
ما يقول حقا ، فقال أبو جهل كلاً فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(ومنهم من يستمع إليك) أى ومن أولئك الكافرين فريق يستمع إليك
إذا أنت تلوت القرآن داعيا إلى توحيد الله مبشرا منذرا .

(وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) أى والحال أنا
قد جعلنا على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه وفهمه ، وفى آذانهم ثقلا أو صمما يحول
دون سماعه بقصد التدبر والوصول إلى مافيه من الهداية والرشد .

وفى هذا تشبيه للحجب والموانع المعنوية بالحجب والموانع الحسية ، فالقلب الذى
لا يفقه الحديث ولا يتدبره كالوعاء الذى وضع عليه الغطاء فلا يدخل فيه شيء ،
والآذان التى لا تسمع الكلام سماع فهم وتدبر كالأذان المصابة بالثقل أو بالصم ،
فسمعا وعدمه سواء .

بيان هذا — أن الله جلت قدرته جعل التقليد الذى يختاره الإنسان لنفسه
مانعا من النظر والاستدلال والبحث عن الحقائق ، فهو لا يستمع إلى متكلم ليميز
الحق من الباطل ، وإذا وصل إلى سمعه ما هو مخالف لما يدين به لا يتدبره ولا يراه
جديرا بالوازنة بينه وبين ما عنده من عقيدة أو رأى ليختار أقربهما إلى الصحة

وأجدرها بالصدق ، وأكثرها هداية ورشادا ؛ وأبعثهما إلى اطمئنان النفس الموصل لها إلى السعادة في الدنيا والآخرة .

(وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أى وإن يروا كل آية من الآيات الدالة على صحة نبوتك وصدق دعوتك لا يؤمنوا بها ، إذ هم لا يفقهونها ولا يدركون المراد منها لوقوف أسماعهم عند ظواهر الألفاظ فحظهم كحظ الصم من سماع أصوات البشر .
(حتى إذا جاءوك مجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) أى حتى إذا جاءوك مجادلين لك في دعوتك قالوا : ما هذا إلا أساطير الأولين وخرافاتهم . ذلك أنهم لم يعقلوا مما في القرآن من أنباء الغيب إلا أنها حكايات وخرافات تسطر وتكتب كغيرها من الأنباء والخرافات ، فلا علم فيها ولا فائدة منها ، وهذه حال من يسمع جرس الكلام ولا يتدبره ولا يفقه أسرارها ، أو من ينظر إلى الشيء نظرة جمالية لا يستنبط منها علما ولا يستفيد منها عقيدة ورأيا ، وما مثلهما إلا مثل من يشاهد ألعاب الصور المتحركة (السينما) مفسرة بافغة هو لا يعرفها ، فكل همه مما يرى من المناظر والكتابة لا يعدو التسلية وشغل الوقت .

فلو عقل هؤلاء قصص القرآن وتدبروا معانيها لكان لهم من ذلك آيات بينات تدل على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعبر ومواعظ ونذرتين سنن الله في خلقه مع الأقوام الذين كذبوا الرسل وكان عاقبة أمرهم الدمار والنكال .

(وهم ينهون عنه وينأون عنه) أى وأولئك المشركون المعاندون للنبي الجاحدون لنبوته ، لا يقرعون بتكذيبهم له وعده حديث خرافة ، بل ينهون الناس عن استماعه لئلا يقفوا على حقيقته فيؤمنوا به ، ويتباعدون عنه بأنفسهم إظهارا لاشمزازهم وففورهم منه فيكونون ناهين منتهين .

(وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون) أى وما يهلكون إلا أنفسهم بتعريضها لأشد العذاب وأفظمه وهو عذاب الضلال والإضلال ، وما يشعرون بذلك بل يظنون أنهم يبغون الفوائد لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا من معجزات القرآن وإخباره بالغيب؛ فقد هلك جميع الذين أصروا على عداوته صلى الله عليه وسلم، بعضهم في نغم خاصة، وبعضهم في وقعة بدر وغيرها من الغزوات.

ويتبع هذا الهلاك الدنيوي هلاك الآخرة، واللفظ يشملهما معا.

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ
بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ
مِنْ قَبْلُ، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَقَالُوا
إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩).

شرح المفردات

يقال وقف الرجل على الأرض وقوفاً، ووقف على الشيء: عرفه وتبينه، ووقف نفسه على كذا وقتاً: حبسها كوقف العقار على الفقراء.

المعنى الجملى

بين الله في الآية السابقة حال طائفة من المشركين تلقى السمع مصغية للقرآن لكن لا يدخل القلب شيء مما تسمع، لما عليه من أكنة التقليد، والاستنكار لكل شيء جديد، فهم يستمعون ولا يسمعون؛ وبين في هاتين الآيتين بعض ما يكون من أمرهم يوم القيامة وتمنيهم العودة إلى الدنيا ليعملوا صالح العمل ويكونوا من المؤمنين حقاً، ثم كذبهم فيما يقولون وأنهم لو ردوا لعادوا لما كانوا فيه لفتقد استعدادهم للإيمان، وأن حالهم بلغ مبلغاً لا يؤثر فيه كشف الغطاء ورؤية الفرع والأهوال.

الإيضاح

(ولو ترى إذ وقفوا على النار) أى ولو ترى أيها السامع ما يحل بأولئك المكذبين من الفرع والهول حين تقفهم ملائكة العذاب على النار مشرفين عليها من أرض الموقف ، وندمهم على كفرهم وحسرتهم على ما فرط منهم فى جنب الله وتمنيهم ما لاسبيل للحصول عليه ، لرأيت ما لا يحيط به الوصف ولا يقدر على التعبير عنه اللسان ولا يبلغ تصويره البيان ، ولو أوتى المتكلم بلاغة سبحانه .

(فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) أى ويقول هؤلاء المشركون بربههم إذ حبسوا على النار : ليتنا نرد إلى الدنيا حتى نتوب ونعمل صالحا ولا نكذب بآيات الله وحججه التى نصهبها دلالة على وحدانيته وصدق رسله ، بل نكون من المصدقين به وبرسله ومن المتبعين لأمره ونهييه .

وإخلاصة — إنهم حين عاينوا الشدائد والأهوال بسبب تقصيرهم تمنوا الرد إلى الدنيا ليسعوا فى إزالة ذلك التقصير ويتركوا التكذيب بالآيات ويعملوا صالح العمل . وتمنى هذا الرد إلى الدنيا بناء على جهلهم بأنه محال ، أو أنهم مع علمهم باستحالاته لما نغ من تمنيه على سبيل التحسر ، لأنه يصح أن يتمنى ما لا يكون .

(بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) أى بدا لهم سوء عاقبة ما كانوا يخفونه من الكفر والسيئات ونزل بهم عقابه فتمرموا وتضجروا وتمنوا الخلاص منه بالرد إلى الدنيا وترك ما أفضى إليه من التكذيب بالآيات وعدم الإيمان ، كما يتمنى الموت من أنه كبه المرض وأضناه الداء العضال ، لأنه ينقذه من الآلام لأنه محبوب فى نفسه ولا مرجولذاته .

بيان هذا أنه إذا جاء ذلك اليوم الذى تبلى فيه السرائر وتكشف جميع الحقائق ، وتشهد على الناس الأعضاء والجوارح ، وتمثل لكل فرد أعماله النفسية والبدنية

في كتابه الذي لا يعادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها كما تتمثل الوقائع مصورة في آله
الصور المتحركة (فلم السينما) .

فكل أحد يظهر له في الآخرة ما كان خفيا عنه من خير في نفسه وشر « يَوْمَئِذٍ
تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ » أى فهي لا تخفى على أنفسكم فضلا عن خفائها
على ربكم .

والخلاصة — إنه تعالى بين لنا أن نمنى أولئك الكفار لما تمنوا لا يدل على
تبدل حقيقتهم ، بل بدأ لهم ما كان خفيا عنهم من أحوالهم بإخفائهم إياه عن الناس
أو عنهم « وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » فتمنوا الخروج مما حاق بهم ، ولكن الحقيقة
لا تتغير ، وإنما يكون للنفوس أطوار وأحوال .
(ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر والنفاق والكيدهم والمكر والمعاصي ،
فإن ذلك من أنفسهم ثابت فيها بحيث طينتهم وسوء استعدادهم ، ومن ثم لا ينفهم
مشاهدة ما شاهدوا ولا سوء ما رأوا .

(وإنهم لكاذبون) فيما تضمنه تمنيمهم من الوعد بترك التكذيب بآيات الله ،
وبالسكران من المؤمنين بالله ورسوله ، فلوردوا إلى الدنيا لرد المعاند المستكبر منهم
مشملا بكبره وعناده ، والمنافق مرتدا بمكره ونفاقه ، والشهواني ملوثا بشهوته القابضة
على زمامه .

وأما ما ظهر لهم إذ وقفوا على النار من حقيقة ما جاء به الرسول ، فمما مثله إلا مثل
ما يلوح لهم في الدنيا من الآيات والعبر ، فهم يكابرون فيها أنفسهم ، ويقالون
عقلهم ووجدانهم .

ألا ترى شارب الخمر والمقامير يريان ما حل بغيرهما من الشقاء فيظهران الندم على
ما فرط منهما ويتوبان ويعزمان على ألا يعودا إلى مثل ما عملا ، ثم لا يلبثان أن
يرجعا سيرتهما الأولى خضوعا لما اعتادا وألغا ، وترجيحا للذة العاجلة على المنفعة الآجلة .

ومن هذا يستبين لك أن الطريقة المثلى لتعويد الناس الفضيلة ، هي حملهم عليها بالعمل والمران وحسن التلقين والتعليم كما يمرن الأطفال في الصغر والرجال على أعمال الجنديّة ، ولا ينبغي أن يسمح للأحداث بإطاعة شهواتهم واتباع أهوائهم ، ظلنا أن هذا يعودهم الحرية والاستقلال فيهديمهم ذلك إلى الحق والفضيلة ، إذ قلما يوجد من يتبع شهواته في الصغر ثم يعدل عن ذلك في الكبر بعد أن يضير طبيعة وعادة .

فما مثل تربية الأطفال على الآداب والفضائل إلا مثل تربيتهم على النظافة ومراعاة القوانين الصحية فإننا نعودهم ذلك في الصغر ثم هم يعرفون فوائد ذلك في الكبر .
(وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) أى لوردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ما نهوا عنه من الكفر وسيء الأعمال ولأنكروا البعث والحساب والجزاء ، وقالوا لا ثواب ولا عقاب في الدار الآخرة .

وَلَوْ تَرَى إِذْ وَفَّوْا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هٰذَا بِالْحَقِّ ؟
قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ، قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)
قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا
يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا
سَاءَ مَا يَزُرُونَ (٣١) وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهَبٌ وَهَوْبٌ ، وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ (٣٢) .

شرح المفردات

الساعة في اللغة : الزمن القصير المعين ، ثم أطلق على الوقت الذي ينقضى به أجل هذه الحياة ويخرب العالم وما يتبع ذلك من البعث والحساب ، سمى بذلك لسرعة

الحساب فيه كأنه ساعة ، و بفتة ، نجأة : يقال بفتته إذا هم عليه من غير شعور ، والحسرة الغم على ما فات والندم عليه كأن التحسر قد انحسر وانكشف عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكب ، والتفريط : التقصير ممن قدر على الجد والتشمير ، من الفرط وهو السبق ومنه الفارط والفرط وهو الذي يسبق المسافرين لإعداد الماء لهم ، والأوزار جمع وزر (بالكسر) وهو الحمل الثقيل ، ووزره (بزنة وعده) حمله على ظهره ثم أطلق في الدين على الإثم والذنب كأنه ثقله على صاحبه كالحمل الذي يثقل الظهر ، واللعب : الفعل الذي لا يقصد به فاعله مقصدا صحيحا من تحصيل منفعة أو دفع مضرة كأفعال الصبيان التي يتلذذون بها ، واللغو : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، وقد يسمى كل ما به استمتاع لهوا ، ويقال لهوت بالشئء أهو به لهوا وتلهيت به إذا تشاغلت وغفلت به عن غيره .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السالفة إنكارهم في الدنيا للبعث والجزاء - بين هنا حالهم في الآخرة يوم يكشف عنهم الغطاء فيتحسرون ويندمون على تفریطهم السابق وغرورهم بذلك المتاع الزائل ، ثم أردفه بذكر حقيقة الدنيا مقابلا بينها وبين الآخرة وموازنا بين حالهما لدى المتقين والعاصين .

الإيضاح

(ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) أى ولو ترى هؤلاء الضالين المكذبين حين تفقههم الملائكة فى الموقف الذى يحاسبهم فيه ربهم ويمسكونهم إلى أن يحكم الله فيهم بما يشاء - لهالك أمرهم واستبشعت منظرهم ورأيت ما لا يحيط به وصف ، وجعلهم موقوفين على ربهم لأن من تفقههم الملائكة وتحبسهم فى موقف الحساب امتثالا لأمر الله فيهم كما قال : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُؤُونَ » يكون أمرهم مقصورا على الله لا يتصرف فيه غيره : « يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » .

(قال أليس هذا بالحق) أي حينئذ يقول لهم ربهم: أليس هذا الذي أنتم فيه من البعث هو الحق الذي لاشك فيه ولا ريب؟ لا باطل كما كنتم تزعمون .
(قالوا بلى وربنا) أي قالوا بلى هو حق لا يحوم حوله الباطل ، وقد أكدوا اعترافهم باليمين فشهدوا بذلك على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

(قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) عبر بالذوق عن ألم العذاب للإشارة إلى أنهم يجدونه وجدان الذائق في قوة الإحساس به أي إذا كان الأمر كما اعترقتم فذوقوا العذاب الذي كنتم به تكذبون بسبب كفركم الذي دأبتم عليه واتخذتموه شعارا لكم لا تتركونه .

(قد خسر الذين كذبوا بقاء الله) أي قد خسر أولئك الكفار الذين كذبوا بما وعد الله به كل ما ربحه وفاز به المؤمنون من ثمرات الإيمان في الدنيا كرضا الله وشكره حين النعمة ، والصبر والعزاء وقت المصيبة ، ومن ثمرات الإيمان في الآخرة من الحساب اليسير والثواب العظيم ، والرضوان الأكبر والنعيم المقيم ، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وما سبب هذا إلا أن إنكار البعث والجزاء يفسد الفطرة البشرية ويفضي إلى الشرور والآثام ، فإن الاعتقاد بأن لاحياة بعد هذه الحياة يجعلهم الكافرين محصورا في الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية كالجاه والرياسة والعلو في الأرض ولو بالباطل ، ومن كانوا كذلك كانوا شرا من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ويفترس بعضها لا يصدحهم عن الشر إلا العجز ولا تحكمنهم إلا القوة .
وشاهدنا على ذلك أن أرقى أهل الأرض في الحضارة والعلوم والفلسفة هم الذين يقوِّضون صروح المدنية بمدافعهم ودباباتهم وطياراتهم وبكل ما أوتوا من فن واختراع ، ويهلكون الحرث والنسل ويحربون العامر من المدن ودور الصناعات بمنتهى القسوة والشدة ، ويهلكون ملايين الأنفس ما بين قتيل وجريح دون أن تستشعر قلوبهم

عاطفة رحمة ولا رافة ، ولو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء لما اتهموا في الطغيان إلى هذا الحد الذي نراه الآن .

(حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة) أى كذبوا إلى أن جاءتهم الساعة مباغتة مفاجئة : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » وقد ورد في الكتاب والسنة أن الله تعالى أخفى علمها عن كل أحد حتى الرسل والملائكة .

(قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها) أى قد خسر الذين كذبوا ببقاء الله وأصروا على هذا التكذيب حتى إذا جاءتهم منيتهم وهى بالنسبة إليهم مبدأ الساعة ومقدمات القيامة ، مفاجئة لهم من حيث لم يكونوا ينتظرونها ولا يعدون العدة لمجيئها ، قالوا يا حسرتنا على تفرطنا فى الحياة الدنيا التى كنا نزعم أن لا حياة بعدها .

(وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم) أى يحملون ذنوبهم وخطاياهم كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وفى ذلك إيماء إلى أن عذابهم ليس مقصورا على الحسرة على ما فات وزال ، بل يقاسون مع ذلك تحمل الأوزار الثقيل ، وإشارة إلى أن تلك الحسرة من الشدة والهول بحيث لا تزول ولا تنسى بما يكابدونه من صنوف العقوبات .

روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أن الأعمال القبيحة تتمثل بصورة رجل قبيح يحمله صاحبها يوم القيامة ، والصالحة بصورة رجل حسن تحمل صاحبها يوم القيامة .

والخلاصة — إنهم ينادون الحسرة التى أحاطت بهم أسبابها وهم فى أسوأ حال بما يحملون من أوزارهم على ظهورهم .

وقد بين الله تعالى سوء تلك الحال التى تلابسهم حينما يلهجون بذلك المقال فقال :

(ألساء ما يزررون) أى ما أسوأ تلك الأثقال التى يحملونها يوم القيامة

على ظهورهم .

(وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) أى وما هذه الحياة الدنيا التى قال الكفار إنه لا حياة غيرها إلا لهو ولعب ، فهى دائرة بين عمل لا يفيد فى العاقبة كعب الأطفال ، وعمل له فائدة عاجلة سلبية كفائدة اللهو وهو دفع الهموم والآلام ، ومن ثم قال بعض الحكماء : إن جميع لذات الدنيا سلبية إذ هى إزالة للآلام ، فإذة الطعام فى إزالة ألم الجوع ، وبقدرة هذا الألم تعظم اللذة فى إزالته ، ولذة شرب الماء هى إزالة العطش وهكذا .

وفى الآية وجه آخر ، وهو أن متاع هذه الدنيا متاع قليل ، قصير الأجل لا ينبغى أن يعتر به العاقل ، فما هو إلا كعب الأطفال قصير المدة ، فإن الطفل سريع الملل لكل ما يقدم إليه من أصناف اللعب ، أو أن زمن الطفولة قصير كله غفلة ، أو كهو الهموم فى قصر مدته ، على كونه غير مقصود لذاته .

(وللدار الآخرة خير للذين يتقون) الكفر والمعاصى خلوا لذاتهما من المضار والآلام وسلامتهما من التقضى والانصرام ، من هذه الدار للمشركين المنكرين للبعث الذى لاحظ لهم من حياتهم إلا التمتع الذى هو من قبيل اللعب فى قصر مدته وعدم فائدته ، أو من قبيل اللهو فى كونه دفعا لألم الهم والكدر .

والخلاصة — إن نعم الآخرة خير من نعيم الدنيا ، فالبدنى منه أعلى وأكمل من نعيم الدنيا فى ذاته وفى دوامه وثباته وفى كونه إيجابيا لا سلبيا ، وفى كونه غير مشوب ولا منغص بشيء من الآلام ، وفى كونه لا يعقبه ثقل ولا مرض ولا إزالة أقدار ، والروحانى منه كلقاء الله ورضوانه وكامل معرفته يجلب عنه الوصف والتحديد ولا شبه له فى نعيم الدنيا .

(أفلا تعقلون) أى أتغفلون عن هذا فلا تعقلون أن الحياة الدنيا لعب ولهو وأتم تروى من يموت ومن تنويه النوائب ، وتجمعه الفواجع ، فى ذلك مزدجر عن الركون إليها واستعباد النفوس لها ، ودليل على أن لها مدبرا يلزم الخلق عبادته وعدم إشراك غيره معه فى ذلك التديير والنظام وإخلاص العبادة والطاعة له .

قَدْ تَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ،
وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَمْجِدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ
قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ، وَلَا مُبَدِّلَ
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ المرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ
إِعْرَاضُهُمْ ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَامًا فِي السَّمَاءِ
فَتَأْتِيهِمْ بآيَةٍ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ ، فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْجَاهِلِينَ (٣٥) .

شرح المفردات

الحزن: ألم يحل بالنفس عند فقد محبوب ، أو امتناع مرغوب ، أو حدوث مكروه ،
ولا سبيل لعلاجه إلا التسلى والتأسي كما قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أسبلى النفس عنه بالتأسي

وكذبه: رماه بالكذب ، والجحود والجحد: نفي ما في القلب إثباته أو إثبات ما في
القلب نفيه ، ويقال جحده حقه وبحقه ، وكلمات الله : هي وعده ووعيده ، ومن ذلك
وعده للرسل بالنصر ، ووعيده لأعدائهم بالغلب والخذلان كقوله : « كَتَبَ اللَّهُ
لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وقوله : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ
المَنْصُورُونَ : وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ العَالِيُونَ » والنبأ : الخبر ذو الشأن العظيم ، وكبر على
فلان الأمر أى عظم عنده وشق عليه وقعه ، والإعراض : التولى والانصراف عن الشيء
رغبة عنه أو احتقاراه ، واستطعت الشيء : صار في طوعك منقادا لك باستيفاء
الأسباب التي تمكنك من فعله ، والابتغاء : طلب ما في طلبه كلفه ومشتقة من البغي

وهو تجاوز الحد ، ويكون في الخير كابتغاء رضوان الله وهو غاية السكالم ، وفي الشر كابتغاء الفتنة وهو غاية الضلال ، والنفق: السرب في الأرض، وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج، والسلم: المرقاة من السلامة ، لأنه الذى يسلمك إلى مصعدك ، وتذكيره أفصح من تأنيثه، والآية : المعجزة ، والجهل هنا : ضد العلم ، وليس كل جهل عيبا لأن الخلووق لا يحيط بكل شيء علما ، وإنما يذم الإنسان بجهل ما يجب عليه علمه ، ثم يجمل ما ينبغي له ويعد كمالا في حقه إذا لم يكن معذورا في جهله .

المعنى الجملى

نزلت هذه السورة في دعوة مشركى مكة إلى الإسلام ومحاجتهم في التوحيد والنبوة والبعث ، وكثرفيها حكاية أقوالهم بلفظ (وقالوا - وقالوا) نحو : « وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ - وَقَالُوا إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا » إلى نحو ذلك - وتلقين الرسول صلى الله عليه وسلم الرد عليهم مع إقامة الحجة والبرهان بلفظ (قل - قل) نحو : « قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ أَنْتُمْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

بعد هذا الحجاج كله ذكر في هذه الآيات تأثير كفرهم في نفس النبي صلى الله عليه وسلم وحزنه مما يقولون في نبوته وما يراه منهم من الإعراض عن دعوته ، وسلاه عن ذلك ببيان سنته سبحانه في الرسل مع أقوامهم وأن كثيرا منهم كذبوا فضنبوا حتى جاءهم النصر المبين وخذل الله أعداءهم الكافرين .

روى ابن جرير عن السدى أن الأحنس بن شريق وأبا جهل النقيما ، فقال الأحنس لأبى جهل : يا أبا الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ها هنا أحد يسمع كلامك غيرى ، قال أبو جهل : والله إن محمدا لصادق وما كذب قط ، واسكن إذا ذهب بنوقصى باللواء والسقاية والحجاية والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ؟ فأنزل الله هذه الآية .

الإيضاح

(قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون) القول الذى يحزنه منهم هو ما كانوا يقولونه فيه وفى دعوته ونبوته من تكذيب وطن وتغيير للعرب منه .

يقول تعالى مسلماً لنبىه صلى الله عليه وسلم فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وأسفك عليهم كما جاء فى قوله : « وَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ » وفى قوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِدَا الْحَدِيثِ آسَفًا » .

(فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) أى لا يتهمونك بالكذب فى نفس الأمر ، ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصودهم . روى سفيان الثورى عن على قال : قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا لا تكذبك ولكن تكذب بما جئت به ، فأنزله الله (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي يزيد المدنى أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي أبا جهل فصاحه ، فقال له رجل ألا أراك تصاح هذا الصابى ؟ فقال والله إني لأعلم إنه لنبى ولكن متى كنا لنبى عبد مناف تبعاً ؟ وتلا أبو يزيد : (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

والخلاصة — إنهم لا ينسبون النبي صلى الله عليه وسلم إلى افتراء الكذب ، ولا يجحدونه كاذباً فى خبر يخبر به . بأن يتبين أنه غير مطابق للواقع ، وإنما يدعون أن ما جاء به من أخبار الغيب التى من أهمها البعث والجزاء كذب غير مطابق للواقع ، ولا يقتضى ذلك أن يكون هو الذى افتراه ، فإن التكذيب قد يكون للكلام دون التكلم الناقل له .

وذكر الرازى فى نفي التكذيب مع إثبات الجحود أربعة أوجه :

(١) إنهم ما كانوا يكذبونه في السر ولكنهم كانوا يكذبونه في العلانية ويحجدون القرآن والنبوة .

(٢) إنهم لا يقولون له إنك كذاب لأنهم جربوه الدهر الطويل فلم يكذب فيه قط ، ولكنهم جحدوا صحة النبوة والرسالة واعتقدوا أنه تخيل أنه نبي وصدق ما تخيله فدعا إليه .

(٣) إنهم لما أصروا على التكذيب مع ظهور المعجزات القاهرة على وفق دعواهم كان تكذيبهم تكذيباً لآيات الله المؤيدة له أو تكذيباً له سبحانه ، فكان الله قال له إن القوم ما كذبوك ولكن كذبوني ، وذلك أن تكذيب الرسول كتكذيب المرسل المصدق له بتأييده على حد : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » .

(٤) إن المراد أنهم لا يخصونك بالتكذيب ، بل ينكرون دلالة المعجزة على الصدق مطلقاً ويقولون في كل معجزة إنها سحر ، فكان الخلاصة إنهم لا يكذبونك على التعيين ولكن يكذبون جميع الأنبياء والرسل .

(والتد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا) أى إن الرسل الذين أرسلوا قبلك ، قد كذبتهم أقوامهم فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم لهم إلى أن نصر الله الرسل بالانتقام من أعدائهم المكذبين لهم .

ونظير هذه الآية قوله : « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ » وقوله : « وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ . . . » الآية .

وفي الآية تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بعد تسليية ، وإرشاد له إلى سننه تعالى في الرسل والأمم ، وقد صرح بوجوب الصبر على هذا الإيذاء في قوله : « فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » وقوله : « وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا » .

وقد دلت التجارب على أن التأسى يهون المصاب ويفيد شيئاً من السلوى ، ومن

هذا تعلم حكمة تكرار التسلية بأمثال هذه الآية مع الأمر بالصبر المرة بعد المرة ، لأن الحزن والأسف اللذين كانا يعرضان له صلى الله عليه وسلم من شأنهما أن يتكررا بتكرار سبهما ويتذكره .

وفي الآية بشارة للرسول صلى الله عليه وسلم مؤكدة للتسلية بأن الله سينصره على المكذبين الظالمين من قومه ، وعلى كل من يكذبه ويؤذيه من أمة الدعوة ، كما أن فيها إيماء إلى حسن عاقبة الصبر ، فمن كان أصبر كان حقيقا بالنصر إذا تساوت بين الخصمين وسائل الغلب والقهر .

(ولا مبدل لكلمات الله) أى إن ذلك النصر قد سبقت به كلمة الله ، فى مثل قوله : « وَوَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » وكلمات الله لا يمكن أن يبدلها مبدل ، فنصر الرسل حتم لا بد منه والتبديل جعل شىء بدلا من شىء آخر ، وتبديل الكلمات والأقوال نوعان :

(١) تبديل ذاتها بجعل قول مكان قول وكلمة مكان أخرى ، ومن هذا قوله تعالى : « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ » .

(٢) تبديل مدلولها ومضمونها كمنع نفاذ الوعد والوعيد أو وقوعه على خلاف القول الذى سيق ، ثم أكد سبحانه عدم التبديل بقوله :

(ولقد جاءك من نبي المرسلين) أى ولقد جاءك ذلك الذى أشير إليه من خبر التكذيب والصبر والنصر من نبي المرسلين الذى قصصناه عليك من قبل ، فقد روى أن سورة الأنعام نزلت بين سور الشعراء والنمل والقصص وهود والحجر المشتملة على نبي المرسلين بالتفصيل .

وكما وعد الله رسله بالنصر وعد المؤمنين به فى نحو قوله : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » وفى قوله « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

فما بالناس ترى كثيرا ممن يدعون الإيمان في هذا الزمان غير منصورين ، فلا بد
 إذًا من أن يكونوا في إيمانهم غير صادقين ، ولأهوائهم متبعين ، ولسنته في أسباب
 النصر جاهلين ، فالله لا يخلف وعده ولا يبطل سننه ، بل ينصر المؤمن الصادق الذى
 يتحرى الحق والعدل فى حربه لا الظالم الباغى من خلقه ، والذى يقصد إعلاء كلمة
 الله ونصر دينه كما جاء فى قوله : « وَكَيْنُصْرَ اللَّهِ مِنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »
 وقوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .
 (وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تتبغى نفقا فى الأرض
 أو سلما فى السماء فتأتينهم بآية) من الآيات التى اقترحوها عليك ليؤمنوا فاتهم بها .
 ذاك أنهم كانوا يقترحون الآيات على النبي صلى الله عليه وسلم وكان يتمنى لو أتاه
 الله بعض ما طلبوا حرصا على هدايتهم ، وأسفا وحزنا على إصرارهم على غوايتهم ،
 لكن الله يعلم أن أولئك المقترحين الجاحدين لا يؤمنون وإن رأوا من الآيات
 ما يطلبون وفوق ما يطلبون .

والخلاصة : وإن كان إتيانهم بآية مما اقترحوا يندحض حججهم ويكشف
 شبهتهم فيؤمنون عن يمينه وبرهان ، فإن استطعت أن تتبغى لنفسك نفقا تطلبه
 فى الأرض فتذهب فى أعماقها ، أو سلما فى جو السماء ترقى عليه إلى ما فوقها ،
 فتأتينهم بآية مما اقترحوا عليك فأت بما يدخل طوع قدرتك من ذلك ، كنبججين
 ينبوع لهم من الأرض أو تنزِيل كتاب تحمله من السماء وقد كانوا طلبوا ذلك
 كما حكى الله عنهم بقوله : « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ
 يَنْبُوعًا إِلَى قَوْلِهِ - أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا
 نَقْرؤه » وقد أمره الله أن يجيبهم عن ذلك بقوله عقب هذا : « قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ
 هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟ » أى وليس ذلك فى قدرة البشر وإن كان رسولا
 فالرسل لا يقدرُونَ على شيء مما يعجز عنه البشر ولا يستطيع إيجاد غير الخالق .

وخلاصة ذلك — إنك لن تستطيع الإتيان بشيء من تلك الآيات ولا ابتغاء السبل إليها في الأرض ولا في السماء ، ولا اقتضت مشيئة ربك أن يؤتيك ذلك لعلمه أنه لن يكون سببا لما تحبه من هدايتهم .

(ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) أى ولو شاء الله تعالى جمعهم على ما جئت به من الهدى لجمعهم عليه ، إما بأن يجعل الإيمان ضروريا لهم كالملائكة ، وإما بأن يخلقهم على استعداد واحد للحق والخير فقط لا متفاوتى الاستعداد مختلفى الاختيار باختلاف العلوم والأفكار والأخلاق والعادات ، ولكنه شاء أن يجعلهم على ما هم عليه من الاختلاف والتفاوت وما يترتب على ذلك من أسباب الاختيار .

(فلا تكون من الجاهلين) أى إذا عرفت سننه تعالى فى خلق الإنسان وأنه لا تبديل لخلق الله ، فلا تكون من الجاهلين لسننه فى ذلك ، فتبنى ما تراه حسنا نافعا وإن كان حصوله ممنعا لكونه مخالفا لتلك السنن التى اقتضتها الحكمة الإلهية ، وخلاصة ذلك — لا تكون بالحرص على إسلامهم والميل إلى الإتيان بمقترحاتهم من الجاهلين بدقائق شئونه تعالى فى خلقه .

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ، وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ مُمْمٍ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنْ اللَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) .

شرح المفردات

أجاب الدعوة : إذا أتى مدعى إليه من قول أو عمل ، وأجاب الداعى واستجاب له واستجاب دعاه : إذا لباه وقام بما دعاه إليه .

والقرآن الكريم يستعمل أفعال الإجابة فى المواضع التى تدل على حصول

المسئول كله بالفعل دفعة واحدة ، واستعمل أفعال الاستجابة في المواضع المفيدة لحصول المسئول بالتهيؤ والاستعداد كقوله : « الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ » إذ الآية نزلت في وقعة حراء الأسد بعد وقعة أحد فالمراد أنهم تهيئوا للقتال أو المفيدة للدلالة على حدوث الفعل بالتدرج كاستجابة دعوة الدين التي تبدأ بالنطق بالشهادتين ثم بباقي أعماله بالتدرج .

والاستجابة من الله يعبر بها في الأمور التي تقع في المستقبل ويكون من شأنها أن تقع بالتدرج كاستجابة الدعاء بالوقاية من النار بالغفرة وتكفير السيئات وإيتاء ما وعد به المؤمنين في الآخرة كما قال (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ) الآية .

والسمع والسماع : يطاق على إدراك الصوت ، وعلى فهم ما يسمع من الكلام وهو ثمرة السمع ، وعلى قبول ما يفهم والعمل به وهذا ثمرة الثمرة ، والمراد بالموتى هنا : الكفار الراسخون في الكفر المطبوع على قلوبهم الميئوس من سماعهم سماع تدبر تتبعه الاستجابة للداعى ، والبعث : لغة إثارة الشيء وتوجيهه يقال بعثت البعير أى أثرته من ميركة وسيرته إلى المرعى ونحوه ، ولولا : كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، والآية المعجزة الخالفة لسنن الله في خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه في الآية السابقة أنه لو شاء لجمع الناس على الهدى ، ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر مفلطحين على ذلك ، ولا أن يلجئهم إجماع الآيات التي تقسمهم على ذلك ، بل اقتضت حكيمته أن يكون البشر متفاوتين في الاستعداد مختارين في تصرفاتهم وأعمالهم ، ومنهم من يختار الهدى على الضلال ، ومنهم من يستحب العمى على الهدى .

ذكر هنا أن الأولين هم الذين ينظرون في الآيات ويفقهون ما يسمعون من الحجج والبيانات ، وأن الآخرين لا يفقهون ولا يسمعون ، فهم والأموات سواء .

الإيضاح

(إنما يستجيب الذين يسمعون) أى إنما يستجيب لله ورسوله الذين يسمعون كلام الله سماع فهم وتدبر فيعقلون الآيات ويدعون لما عرفوا بها من الحق لسلامة فطرتهم وصفاء نفوسهم وطهارة قلوبهم ، دون الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ؛ كالمقلدين الذين لا يفكرون فى الأشياء بعقولهم ، ودون الذين قالوا سمعنا وعصينا من المستكبرين الجاحدين ، فهؤلاء وهؤلاء من موتى القلوب وأبعد الناس عن الانتفاع بما يسمعون .

(والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون) أى والذين لا ترجى استجابتهم لأنهم كالموتى لا يسمعون السماع النافع ، يترك أمرهم إلى الله فهو الذى يبعثهم بعد موتهم ، ويرسلهم إلى موقف الحساب فينالون ما يستحقون على كفرهم وسيء أعمالهم ، فلا تبخع نفسك عليهم حسرات ، إذ ليس فى استطاعتك هدايتهم ولا إرجاعهم إلى محجة الرشاد .

(وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه) أى وقال الظالمون لأنفسهم الذين يمجحون بآيات ربهم ويعاندون رسوله إليهم : هلا أنزل عليه آية من ربه من الآيات التى اقترحناها عليه وجعلناها شرطا لإيماننا به .

(قل إن الله قادر على أن ينزل آية ، ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى قل لهم أيها الرسول إن الله تعالى قادر على تنزيل آية مما اقترحوا إذا اقتضت الحكمة تنزيلها لإذا تعلقت شهواتهم بتعجيز الرسول بطلبها ، فقد مضت سنة الله بأن إجابة المعاندين إلى ما اقترحوا لم تكن سببا للهداية فى أمة من الأمم ، بل كانت سببا فى عقاب المعاجزين للرسول بعذاب الاستئصال ، وتنزيل الآية لا يكون خيرا لهم بل هو شرهم ولكن أكثرهم لا يعلمون شيئا من حكم الله تعالى فى أفعاله ولا من سنته فى خلقه .
والمخلاصة — إن طلبهم للآية أو الآيات مع وجود هذه الآيات البينات إنما هو محاولة تعجيز الرسول لأنه هو الدليل الذى يوصلهم إلى صدقه .

يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَهَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ » وقوله : « وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ » .

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنمِّئَ بِكُمْ مِثْلَهُ ، مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)
 وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّوا وَبُكِمُوا فِي الظُّلُمَاتِ ، مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ ،
 وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) .

شرح المفردات

الدابة : كل ما يدب على الأرض من الحيوان والدب والديب المشى الخفيف والطائر: كل ذى جناح يسبح في الهواء وجمعه طير كراكب وركب ، والأمم واحدها أمة : وهى كل جماعة يجمعهم أمر كدين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد أو صفات وأفعال واحدة ، والتفريط فى الأمر التتصير فيه وتضييعه حتى يفوت ، يقال فرطه وفرط فيه ، والكتاب هنا: هو اللوح المحفوظ، وقيل القرآن ، والحشر: الجمع والسوق.

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه فيما سلف أن الله قادر على أن ينزل الآيات إذا رأى من الحكمة والمصلحة إنزالها ، ولا ينزلها للتشهى والهوى كما يراه المقترحون من أولئك الضالين المكذبين - ذكر ما هو كالدليل على ذلك ، فأرشد إلى عموم قدرته تعالى وشمول علمه وتديره ، وأن كل ما يدب على وجه الأرض أو يطير فى الهواء فهو مشمول بفضل الله ورحمته وإحسانه ، فلو كان فى إظهار هذه العجرات مصلحة

للمكلفين لفعالها ولا تمتنع أن يبخل بها ، إذ أنكم ترون أنه لم يبخل على شيء من
الحيوان بمنافعها ومصالحها .

الإيضاح

(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم) أى لا يوجد
نوع من أنواع الأحياء التى تدب على الأرض ولا من أنواع الطير التى تسبح فى الهواء
إلا وهى أم مماثلة لكم أيها الناس؛ وقد أثبت الأخصائيون الباحثون فى طباع الحيوان
الذين تفرغوا لدرس غرائزها وأعمالها أن التمل مثلًا يغزو بعضه بعضًا وأن المنتصر
يسترقّ المكسر ويسخره فى حمل قوته وبناء قراه ، إلى نحو أولئك من الأعمال التى
تخصه ؛ وقد حرصت الأمم المتدينة على تحريم اصطياد بعض أنواع الحيوان ، فإذا رأت
بعض ما يصاد من الطير وغيرها قلّ فى بلادها وخشى انقراضه منها حرمت صيده .

وخص دواب الأرض بالذكر لأنها هى التى يراها المخاطبون عامة ويدركون فيها
معنى الماثلة ، دون دواب الأجرام السماوية القابلة للحياة الحيوانية التى أعلمنا الله
بوجودها فى قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ
دَابَّةٍ ، وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » وهذا من أخبار الغيب التى دل العلم
الحديث على صدقها ؛ فقد أثبت الباحثون من علماء الفلك أن بعض الكواكب
كلما ريخ فيه ماء ونبات فلا بد أن يكون فيه أنواع من الحيوان ، بل فيه أمارات
على وجود عالم اجتماعى صناعى كالإنسان ، منها ما يرى على سطحه بالمرقب (التلسكوب)
من جداول منظمة وخليجان وجبال ووديان إلى نحو أولئك .

وهذه الآية الكريمة ونحوها ترشدنا إلى البحث فى طباع الأحياء لنزداد علما
بسنن الله وأسراره فى خلقه ونزداد بآياته فيها إيمانًا وحكمة وكالا وعلمًا ونعتبر بحال
المكذبين بها الذين لم يستفيدوا مما فضّلهم الله به على الحيوان فكانوا أضلّ من جميع
أنواعه التى لا تجنى على نفسها ما يجنيه الكافر على نفسه .

(ما فرطنا فى الكتاب من شىء) فسر ابن عباس الكتاب هنا بأمر الكتاب : وهو اللوح المحفوظ ، وهو خلق من عالم الغيب أثبت الله تعالى فيه مقادير الخلق ما كان منها وما يكون على حسب السنن الإلهية ، وقيل الكتاب هنا علم الله المحيط بكل شىء ، شبه بالكتاب لكونه ثابتا لا ينسى ، وقيل هو القرآن أى ما تركنا فى القرآن شيئا من ضروب الهداية التى ترسل من أجلها الرسل إلا بيناه فيه فقد ذكرت فيه أصول الدين وأحكامه وحكمها والإرشاد إلى استعمال القوى البدنية والعقلية التى سخرها الله للإنسان .

قال الحافظ بن كثير : ما فرطنا فى الكتاب من شىء أى الجميع علمهم عند الله لا ينسى واحدا من جميعها من رزقه سواء كان برىا أو بحريا كقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » أى مفصحا بأسمائها وأعدادها ونظامها وحاصر لحركاتها وسكناتها .

(ثم إلى ربهم يحشرون) أى ثم يبعث أولئك الأمم من الناس والحيوان يوم القيامة ويساقون مجتمعين .

وروى ابن جرير عن ابن عباس : أن المراد بحشر البهائم موتها كما ورد فى الحديث « من مات فقد قامت قيامته » .

(والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات) أى والكافرون الذين كذبوا بآياتنا المنزلة الدالة على وحدانيتنا وصدق ما جاء به رسولنا - تكذيب جحود واستكبار أو تكذيب جهود على تقليد الآباء - صم لا يسمعون دعوة الحق والهدى سماع قبول ، وبكم لا ينطقون بما عرفوا من الحق ، وهم يتخبطون فى تلك الظلمات الحالكه ، ظلمة الوثنية ، وظلمة تقليد الجاهلية ، وظلمة الجهل والأمية .

(من يشأ الله يضلله) أى من تعلقت مشيئته بإضلاله يضلله كما أضل هؤلاء الذين استجبوا العمى على الهدى ، وإضلاله إياهم جاء على مقتضى سننه فى البشر ،

أن يعرض المستكبر عن دعوة من يراه دونه وإن ظهر له أنه الحق ، وأن يعرض المتقيد عن النظر في الآيات والدلائل التي تنصب لبيان بطلانها وإثبات خلافها مادام مغرورا بها مكبراً لمن جرى من الآباء عليها .

(ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) أى ومن يشأ هدايته يجعله على طريق مستقيم هو طريق الحق الذى لا يضل سالكه ، بأن يوقفه لاستعمال سمعه وبصره وعقله ، استعمالاً يعرف به الحق ويعرف به الخير ، ويعمل به على حسب سنته تعالى فى الارتباط بين الأعمال البدنية والعقائد النفسية .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقَطَّعَ دَائِرَةُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) .

شرح المفردات

أرأيتم أى أخبروني ، وهو أسلوب يذكر للتعجب والتنبيه إلى أن ما يذكر بعده غريب عجيب تقوم به الحجة على الخالف ، يكشف أى يزيل ما تدعونه إلى كشفه إن شاء ، والبأساء : تطلق على الحرب والمشقة ، والبأس : الشدة

في الحرب والعذاب الشديد والقوة والشجاعة ، والضراء : من الضر ضد النفع ،
والنضرع : إظهار الضراعة والخضوع بتكلف ، والأخذ بالبأساء والضراء : إنزالها
بهم ، مبلسون : أى متحسرون يأسون من النجاة ، دابر القوم : آخرهم الذى
يكون فى أدبارهم ، وقطع دابرهم أى هلكوا واستئصلوا بالعذاب ولم يبق منهم
أحد .

المعنى الجملى

بعد أن بين الله تعالى للمشركين أن علمه محيط بما فى الأرض والسماء ، وأن عنايته
تم كل ما درج على الأرض أوطار فى الهواء ، وأن أمم الحيوان مشابهة لأمم الإنسان ،
وقد أوتيت من الإلهام والمعرفة ما به تميز بين ما ينفعها وما يضرها .
أمر نبيه أن يوجه إليهم هذا السؤال مذكرا لهم بما أودع فى فطرتهم من
توحيد عزالله عز اسمه ليعلموا أن ما تقلدوه من الشرك عارض شاغل يفسد أذهانهم وقت
الرخاء وارتفاع اللأواء حتى إذا جد الجدد ونزل بهم ما لا يطاق حمله من الشدائد دعوا
الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين وفضل عنهم ما كانوا
يعبدون من الأصنام والأوثان . وما وضعت رمزا له من ملك أو إنسان .

الإيضاح

(قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون إن كنتم
صادقين ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين العادلين بالله الأوثان
والأصنام ، أخبروني إن أتاكم عذاب الله كالذى نزل بمن قبلكم من الأمم الذين
كذبوا بالرسول ، فقد هلك بعضهم برح صرصر عاتية ، وبعض آخر بالصاعقة ، أو بمياه
الطوفان المغرقة ، أو جاءكم الساعة بأهوالها وخزيبها ونكالها وبعثتم لموقف الحساب -
أغير الله فى هذه الأحوال تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء ؟ أم إلى غيره من
آلهتكم تفرعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء ، إن كنتم صادقين فى دعواكم

الاهوية هؤلاء الشركاء الذين اتخذتموهم أولياء وزعمتم أنهم شفعاء؟ فأخبروني أعير الله تدعون إذا أتاكم أحد هذين الأمرين؟ ثم أجاب عن ذلك بقوله :

(بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) أى ما أتم أيها المشركون بالله الآلهة والأنداد إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة - بمستجيرين بشيء غير الله من وثن أو صنم إذا اشتد الهول بكم ، بل تدعونه وحده ، وبه تستغيثون ، وإليه تفزعون دون كل شيء غيره ، فيفرج عنكم ويزيل البلاء عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه إن شاء ذلك ، لأنه وحده القادر على كل شيء ، والمالك لكل شيء دون ما تدعونه إلهًا من صنم أو وثن ، لأن الفزع إليه سبحانه عند الشدائد مما ركز في فطرة البشر تنبعث إليه بذاتها كما تنبعث إلى الماء عند العطش ، فلا يذهب به ما يتلقى بالتعليم الباطل من مسائل الدين ، فهم به يجنون على غريزة التوجه إلى خالقهم وخالق العالم كله بما يتخذونه من الأنداد والأولياء والشفعاء الذين يتوجهون إليهم كما يتوجهون إلى الله ويحبونهم كحب الله ، وما منشأ ذلك التقديس إلا اعتقاد القدرة على النفع والضر من غير طريق الأسباب المعروفة ، لكنهم عند الشدائد وتراكم الأهوال والكروب ينسونهم ويدعون الله وحده .

ولهذا الحب والتعظيم ثلاث درجات :

(١) أعرقها في الجهل أن يعتقد في شيء من المخلوقات أنه إله ينفع ويضر بذاته فيتوجه إليه ويدعوه ويتضرع إليه .

(٢) المرتبة الوسطى أن يعتقد أن الإله قد حل في بعض المخلوقات واتحد بها كما تحل الروح في البدن وتدبره فيكونان شيئًا واحدًا .

(٣) أضعف درجاته أن يعتقد أن الله تعالى هو الخالق لكل شيء القادر على كل شيء المتصرف في كل شيء ، ولكن له وسطاء بينه وبين عباده يقرّبونهم إليه زلفي يوشفعون لهم عنده ، فهو لأجلهم يعطى ويمنع ويضر وينفع ، وهذه هي الدرجة التي

كان عليها مشركو قريش، فقد حكى الله عنهم: « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ » - « هُوَ لَا يَشْفَعُ أَوْلِيَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ » .

والتوحيد الخالص هو الإيمان بأن الله يفعل ما يشاء ويختار وأن جميع الخلق مسخرون لإرادته وتديره خاضعون لسننه وتقديره ، لا يملك أحد منهم لنفسه ولا غيره شيئاً إلا في دائرة الأسباب التي شرعها لعباده ، وأن الوساطة بين الله وعباده محصورة في تبليغ الرسول رسالته إليهم دون تصرفه فيهم ، وأن شفاعة الآخرة لله وحده يأذن بها إن شاء لمن شاء ممن ارتضى ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى لخاتم رسله : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » وقوله : « قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ » وقوله : « قُلْ إِنِّي لَنْ يُخَيِّرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَكَانَ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا . إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ » .

وقد بين الله أن تلك الوساطة الشركية تنسى عند اشتداد الكرب والأهوال فقال : « فَإِذَا رَأَوْا كِبُورَ الْفُلْكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » وقال : « وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَاطِّالٍ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ » .

(ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون)
 أى لقد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فدعواهم إلى توحيدنا وعبادتنا فلم يستجيبوا لهم فأخذناهم أخذ ابتلاء واختبار بالبأساء والضراء ليكون ذلك مفيدا لهم ، لأن سنتنا قد جرت بأنهم في مثل هذه الحال يتضرعون ويجارون بالدعاء إلى ربهم ، فالشدايد تربي النفوس وتهذب الأخلاق ، فترجع المغرورين عن غرورهم ، وتكف الفجار عن فجورهم ، فأخلق بها أن ترجع أهل الأوهام عن دعاء أمثالهم من البشر بل من دونهم من الأصنام والأوثان .

ولكن كثيرا من الناس يصلون إلى حال من الشرك والفجور لا يغيرها بأس ولا يحولها برّس ، فلا تجدى معهم العبر والمواعظ ولا تؤثر فيهم صروف الدهر وغيره ، ومنهم أولئك الأمم الذين أرسل إليهم هؤلاء الأنبياء ، ومن ثم قال تعالى :

«فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون» أى فهلا تضرعوا إلينا خاشعين تائبين حين جاءتهم مقدمات العذاب وبوادره وحذروا عواقبه وأواخره لنكشفه عنهم قبل أن يحيط بهم .

ولكن قلوبهم كانت كالحجارة أو أشد قسوة فلم تؤثر فيهم النذر ، وزيّن لهم الشيطان ما هم عليه من الشرك والفجور ، ووسوس إليهم بأن يثبتوا على ما كان عليه آبائهم ولا يفتقدوا إلى رجال منهم ضعاف الأحلام سفهاء العقول لا ميزة لهم عليهم بعقل راجح ولا فكر ثاقب .

(فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) أى فلما عرضوا عما أنذروهم به رسلهم وتركوا الاهتداء به وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم وأصرروا على كفرهم وعنادهم وجدوا على تقليد من قبلهم - بلوانهم بالحسنات وفتحنا عليهم أبواب الرزق ورخاء العيش وسحة الأجسام والأمن على الأنفس والأرواح ، فلم تربهم تلك النعم ولا شكروا الله على ما أنعم ، بل أفادتهم النعمة بطرا وكبرا كما أفادتهم الشدائد عتوا وقسوة .

والخلاصة — إنه تعالى سلط عليهم المكارة والشدائد ليحسبوا ويتعظوا ، فلما لم تجدى معهم شيئا نقلهم إلى حال هي ضدها ففتح عليهم أبواب الخيرات وسهل لهم سبيل الرزق والرخاء فلم ينتفعوا أيضا ، وما مثل هذا إلا مثل الأب المشفق على ولده يخاشنه تارة ويلاينه أخرى طلبا لصلاحه واستقامة حاله وإرجاعه له عن غيه وطغيانه .

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) أى حتى إذا ظنوا أن الذى أوتوا إنما هو باستحقاقهم ولم يزدهم ذلك إلا بطرا وغرورا ، أخذناهم بعذاب

الاستئصال حال كونهم مبعوثين ، إذ فاجأهم على غرة من غير سبق أمارات ولا إهمال للاستعداد أو للهرب ، فإذا هم ملبسون أى يأسون من النجاة .
 وفي الآية إيماء إلى أن البأساء والضراء وما يقابلهما من السراء والنعماء مما يتهذب بها من وفقهم الله للهداية وألهمهم الرشاد ، والاختبار أكبر شاهد على صدق هذه القضية ، فالشائد مصلحة للفساد ومهذبة للنفوس ، والمؤمن أجدر الناس بالاستفادة من الحوادث . روى مسلم عن صهيب مرفوعاً « عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

وروى أحمد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه ما يجب ، فإنما هو استدراج ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فلما نسوا ما ذكروا به الآية » .

وروى مالك عن الزهري أنه قال : (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) أى رخاء الدنيا وسترها . وقال الحسن البصرى : من وسع الله عليه فلم ير أنه لم يكر به فلا رأى له ، ومن قتر عليه فلم ير أنه لم ينظر له فلا رأى له ، ثم قرأ : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) .

(ققطع دابر القوم الذين ظلموا) أى فهلك أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب الرسل والإصرار على الشرك وأعماله واستؤصلوا فلم يبق منهم أحد .

(والحمد لله رب العالمين) أى والثناء الكامل والشكر التام لله رب العالمين على إنعامه على رساله وأهل طاعته بإظهار حججهم على من خالفهم من أهل الكفر وتحقيق ما وعدهم به من إهلاك المشركين وإراحة الأرض من شركهم وظلمهم .

وهذه الجملة إرشاد من الله لعباده المؤمنين بتذكيرهم بما يجب عليهم من حمده على نصر المرسلين المصلحين وقطع دابر الظالمين المفسدين وإيماء إلى وجوب ذلك في عاقبة كل أمر وخاتمة كل عمل كما قال تعالى في وصف عباده المتقين : « وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

وإخلاصة -- إن في الضراء والسراء عبرة وعظة للمتقين ، وعبرة ظاهرة أو باطنة
للفائزين المفاجين .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ
مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ؟ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَنْ هُمْ
يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ آتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بُعْثَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ
يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ،
فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا يَسْتَمِعُونَ الْعَذَابَ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) .

شرح المفردات

نصرف الآيات أى نكررها على وجوه مختلفة، ومنه تصريف الرياح، ويصدفون :
يعرضون عن ذلك . والمس : اللس باليد ، ويطلق على ما يصيب المدرك مما يسوءه
غالبا من ضر وشر وكبر ونصب وعذاب .

المعنى الجملى

هذا ضرب آخر من ضروب الدعوة إلى وجود الصانع القادر وتوحيده ، وإثبات
الرسالة بوجه آخر غير ما تقدم من وجوه الاحتجاج .

الإيضاح

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ
يَأْتِيكُمْ بِهِ ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المكذبين بك وبما حجت به

من التوحيد والهدى : رأيتم ماذا يكون من أمركم مع آلهتكم الذين تدعونهم وترجون شفاعتهم - إن أصمكم الله تعالى فذهب بسمعكم ، وأعماكم فذهب بأبصاركم ، وختم على قلوبكم وطبع عليها ، فأصبحتم لا تسمعون قولاً ، ولا تبصرون طريقاً ، ولا تعقلون . نفعا ولا ضرا ، ولا تدركون حقا ولا باطلا - من إله غير الله يأتيكم بما ذكر مما أخذ الله منكم ؟ أى لا إله غيره يقدر على إتيانكم بما سلب ، ولو كان ما اتخذتم من دونه من الأنداد والأولياء أهلة لقدروا على ذلك ؛ وإن كنتم تعلمون أنهم لا يقدرون فلماذا تدعونهم ، وما الدعاء بالإعبادة ، والعبادة لا تكون إلا للإله القدير ؟

(انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدقون) أى انظر كيف تتابع عليهم الحجاج ونضرب لهم الأمثال والعبر - ونجعلها على وجوه شتى ليعتبروا ويتذكروا فينبسوا ويرجعوا ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها ويتجنبون التأمل فيها - ويلقونها وراء ظهورهم .

(قل رأيتمكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون) أى قل لهم أيها الرسول : أخبروني عن شأنكم إن أتاكم عذاب الله الذى مضت سنته ، الله فى الأولين بإنزاله بأمثالكم من المكذبين المعاندين مباغتاً ومفاجئاً لكم فأخذكم على غرة لم تتقدمه أمارة تشعركم بقرب نزوله بكم ، أو أتاكم وأتمتعابونونه وتنتظرون إليه بحيث ترون مبادئه ومقدماته بأبصاركم - هل يهلك الله به إلا القوم الظالمين منكم الذين أصروا على الشرك والعناد والجحود ، إذ قد مضت سنته تعالى فى مثل هذا العذاب أن ينجى منه الرسل ومن اتبعهم من المؤمنين .

والخلاصة - إنه لا يهلك بهذا العذاب غيركم ، لظلمكم أنفسكم وجناتكم عليها بما اخترتم لها من الشرك والفجور وعبادة من لا يستحق العبادة ، وترك عبادة من هو بها حقيق وجدير :

(وما ترسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أى وما ترسل المرسلين إلا ببشارة أهل الطاعة بالفوز بالجنة جزاء وفاقاً على طاعتهم ، وإبذار من أصروا على الشرك والإفساد فى الأرض ، لتندر إليه فيهلك إن هلك عن بينة .

(فن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى فمن صدق من أرسلنا إليه من رسلنا وعمل صالحا فلا خوف عليهم من عذاب الدنيا الذى ينزل بالكاذبين الجاحدين ولا من عذاب الآخرة الذى أعده للكافرين ، ولا هم يحزنون يوم لقاء الله على شىء فاتهم ، لأن الله يحفظهم من كل فرع وهول كما قال سبحانه : «لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» وكذلك هم لا يحزنون فى الدنيا لحزن المشركين فى شدته وطول مدته ، فإذا عرض لهم الحزن بسبب صحيح كموت ولد أو قريب أو فقد مال أو قلة نصير يكون حزنهم مقرونا بالصبر وحسن الأسوة فلا يضرهم فى أنفسهم ولا فى أبدانهم ، ولا يغير شيئا من أخلاقهم وعاداتهم ، فالإيمان يعصمهم من عنت البأساء وبطر النعماء ، مسترشدين بنحو قوله تعالى « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » .

(والذين كذبوا بآياتنا يسهم العذاب بما كانوا يكفرون) أى والذين كذبوا بآياتنا التى أرسلنا بها الرسل يصيبهم العذاب فى الدنيا أحيانا عند الجحود والعدا ، وفى الآخرة على سبيل الدوام والاطراد ، جزاء كفرهم وإفسادهم ، وخروجهم عن أمر الله وطاعته ، وارتكابهم مناهيه ومحارمه .

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَّلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ

الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ
 مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ
 الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 مِنْ بَيْنِنَا؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) .

شرح المفردات

الخزائن واحدها خزينة أو خزانة : وهى ما يخزن فيها الشيء الذى يراد حفظه
 ومنع التصرف فيه : « وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ » والغيب : ما غيب علمه
 عن الناس بعدم تمكينهم من أسباب العلم به ، وهو قسمان :

(١) غيب حقيقى : وهو ما غاب عن جميع الخلق حتى الملائكة وهو المعنى
 بقوله عز اسمه : « قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ » .
 (٢) غيب إضافى : وهو ما غاب علمه عن بعض الخلق دون بعض كالذى
 يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ولا يعلمه البشر .

أما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه واستعمالهم لها ولا يعلمه غيرهم
 لجهلهم بتلك الأسباب أو معجزهم عن استعمالها فليس بداخل فى عموم الغيب الوارد
 فى كتاب الله .

وهذه الأسباب ضروب :

(١) ماهو علمى كالدلائل العقلية والعلمية ، فعلماء الرياضة يستخرجون من
 دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس ويضبطون ما يقع من الخسوف
 والكسوف بالدقائق والثوانى قبل وقوعه بألوف الأعوام .

(٢) ماهو عملى كالبرق الأثيرى (التلغراف اللاسلكى) الذى يعلم به المرء
 ما يقع فى أقاصى البلاد من وراء البحار وبينه وبينها ألوف الأميال .

(٣) ما هو إدراكات نفسية خفية تصل إلى مرتبة العلم كالفراسة والإلهام ،
وأكثر هذا النوع هو اجس تلوح للنفس ولا يجزم بها الإنسان إلا بعد وقوعها .
والأعمى والبصير : هنا الضال والمهتدى ، والإنذار : العظة والتخويف ، الطرد :
الإبعاد ، والغداة والغدوة كالبكرة : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، والعشي :
آخر النهار أو من المغرب إلى العشاء . وحسابهم : أى حساب إيمانهم وأعمالهم
الباطلة . وقتنا : أى ابتلينا واختبرنا . ومن بيننا : أى من دوننا . من الله عليهم :
أى أنعم عليهم بنعم كثيرة .

المعنى الجملى

كان الكلام فى الآيات السالفة فى بيان أركان الدين وأصول العقائد، وهى: توحيد
الله عز وجل ، ووظيفة الرسل عليهم السلام ، والجزاء على الأعمال يوم الحساب .
وذكر هنا وظيفة الرسل العامة بتطبيقها على خاتم الرسل صلوات الله وسلامه
عليه ، وأزال أوهام الناس فيها ، وأرشد إلى أمر الجزاء فى الآخرة وكون الأمر فى الله
تعالى وحده على وجه يزيد عقيدة التوحيد تقريرا وتأكيدا وبيانا وتفصيلا .

الإيضاح

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك)
أى قل أيها الرسول الذى بعث كما بعث غيره من الرسل مبشرا من أجاب دعوته
يحسن الثواب ، ومنذرا من لم يقبلها بسوء العقاب ، لهؤلاء المكذبين لك بغير علم
يميزون به بين شئون الألوهية وحقيقة النبوة فيقرحون عليك من الآيات الكونية
ما يعمون أنه ليس فى مقدور البشر . فهم إما أن يقولوا تمجيذا ، وإما أن يظنوا أن
الإنسان لا يكون رسولا إلا إذا خرج من حقيقة البشرية وصار قادرا على ما لا يقدر
عليه البشر ، وعالما بكل ما يعجز عن علمه البشر : لا أقول لكم عندى خزائن الله :

أتصرف بما خزنه وحفظه فيها من أرزاق العباد وشئون الخلقوات . فكل هذا لله وحده يتصرف فيه بما يشاء فيعطى لعباده من خزائنه على حسب ما أوتي كل منهم من الاستعداد في دائرة ارتباط الأسباب بالمسببات ولا يقدر أحد أن يتجاوز ذلك إلى ما لم يؤت به ولم يصل إليه استعداده .

فالتصرف المطلق إنما هو لله القادر على كل شيء ، وليس من موضوع الرسالة أن يكون الرسول المبلغ عنه أمر الدين قادرا على ما لا يقدر عليه البشر من التصرف في الخلقوات بالأسباب فضلا عن التصرف بتغير سبب مما يطلبه المشركون منه وجعله شرطا للإيمان به كتفجير الينابيع والأنهار في أرض مكة ، وإيجاد الجنات والبساتين فيها ، وإسقاط السماء عليهم كسفا ، والإتيان بالله والللائكة قبيلة .

فإن قال قائل : إن الله أثبت علم الغيب للمتعلق بالرسالة للرسول عليهم السلام كقوله في سورة الجن : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » فكيف أمره هنا أن يتنصل من ادعاء علم الغيب ؟

وجوابه — أن إظهار شيء خاص من عالم الغيب على يدى الرسل — لا يجعل ذلك داخلا في علومهم الكسبية . فإن الوحي ضرب من العلم الضرورى يجده النبي في نفسه حينما يظهره الله عليه ، فإذا حبس عنه لم يكن له قدرة ولا وسيلة كسبية للوصول إليه ، يؤيد ذلك ما جاء في فترات الوحي في السيرة النبوية ، وقد يكون توجه قلب الرسول إلى الله تعالى في بعض الحوادث مقدمة لنزول الوحي في الحكم الذى طلب من ربه بيانه — يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا » .

وإخلاصة — إن الأنبياء لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم المكتسبة ، كذلك لم يعطوا التصرف في خزائن ملك الله ، فلم يتمكنهم ما لم يتمكن البشر من أسبابه حتى يكون من كسبهم وعملهم ، ولا هو أعظم ذلك على سبيل الخصوصية .

وفي كل من الأمرين إتياء إلى التبرؤ من ادعاء الألوهية أو ادعاء شيء من صفات الإله القادر على كل شيء العليم بكل شيء ، وإشارة إلى جهل المشركين حقيقة الإلهية وحقيقة الرسالة ، فقد اقترحوا عليه من الأعمال ما لا يقدر عليه إلا من له التصرف فيما وراء الأسباب ، والإخبار بما يكون في الزمان المستقبل ولا يعلمه إلا من كان علم الغيب صفة له كسائر الصفات . فقد سألوه عن وقت الساعة ، وعن وقت نزول العذاب بهم ، وعن وقت نصر الله تعالى له عليهم .

وإذا علمت أن الأنبياء لم يؤتوا ذلك فأحررهم من دونهم منزلة عند الله من القديسين والأولياء المقربين ألا يكون لهم ذلك ، فادعاهم لهم جهل عظيم وإثم كبير ولا ينبغي التحدث به لابن العامة ولا بين الخاصة . كما يجب محوه من الأذهان لدى الجاهلين بسنن الله في الأكوان .

(إن أتبع إلا ما يوحى إليّ) أى قل لهم ما أتبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه إلا وحى الله الذى يوحىه إليّ وتنزيله الذى ينزله عليّ ، فأمضى لوحيه وأعمل بأمره ، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة على صحة ما أقول وليس ذلك بالمنكر فى عقولكم ، ولا بالمستحيل كونه ووجوده ، فما وجه إنكاركم لذلك ؟ .

(قل هل يستوى الأعمى والبصير) أى قل لهؤلاء المشركين المكذابين : هل يستوى أعمى البصيرة الضالّ عن الصراط المستقيم الذى دعوتكم إليه ، فلم يميز بين التوحيد والشرك ولا بين صفات الله وصفات البشر ، وذو البصيرة المهتدى إليه ، المستقيم فى سيره عليه بالحجة والبرهان حتى صار ذلك فى مرآة قلبه أوضح مما ترى العينان وتسمع الأذنان .

والخلاصة — إنهما لا يستويان ، كما أن أعمى العينين وبصيرهما لا يستويان . (أفلا تتفكرون) فيما أذكركم من الحجج فتعلموا صحة ما أقول وأدعوكم إليه ، وتميزوا بين ضلال الشرك وهداية الإسلام ، وتعلقوا مافى القرآن من ضروب الهداية والعرفان بذلك الأسلوب الرائع الذى لم تعهدوه من قبل ، فهل يكون ذلك فى مقدورى

وقد لبثت فيكم عمرا من قبل عاتلا من هذه المعرفة ، وتلك البلاغة الساحرة ، وذلك البيان الخلاب .

(وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلمهم يتقون) أى وأنذر بما يوحى إليك - المؤمنين بك الذين يخافون أهوال الحشر وشدة الحساب وما يتبع ذلك من الجزاء على الأعمال عند القدوم على الله فى ذلك اليوم الذى لا يبيع فيه ولا خلة ولا شفاعة : « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ » يوم لا ولى ينصر ، ولا شفيع يدفع العذاب إن أريد النجاة منه ، بل أمر ذلك متوقف على مرضاة الله .

فهؤلاء المؤمنون هم الذين يرجى أن يتقوا الله اهتداءً بهديك وخوفاً من إنذارك ويتحروا ما يؤدي إلى مرضاته ، لا يصددهم عن ذلك اتكال على الأولياء ولا اعتماد على الشفعاء علما منهم أن الشفاعة لله جميعا : « مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ » . كما أنهم يستيقنون أن نجاتهم إنما تكون بإيمانهم وأعمالهم وتركيتهم لأنفسهم لا بانتفاعهم بصلاح غيرهم أو شفاعة الشافعين لهم ، كما هو حال المشركين الذين جهلوا أن مدار السعادة فى الدنيا والآخرة مرتبط بتزكية النفس وطهارتها بالإيمان الصحيح والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة لا على أمر خارج عن النفس لا تأثيره فيها . والآية بمعنى قوله تعالى : « إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ » وقوله : « إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ » .

(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) أى ولا تطرد أيها الرسول هؤلاء المؤمنين الموحدين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى أى أول النهار وآخره ، أو المراد عامة الأوقات إذ يقال هو يفعل كذا صباحا ومساء : إذا كان مداوما عليه .

والدعاء إما الصلاة وقد كان في أول الإسلام صلاتان إحداهما في الصباح والأخرى في المساء ، وإما الأعم الشامل للدعاء الحقيقي والصلاة والقرآن المشتملين عليه .
 وقوله يريدون وجهه : أى يدعون ربهم في هذين الوقتين مرادين بهذا الدعاء ابتغاء مرضاته تعالى : أى يتوجهون إليه وحده مخلصين له الدين ، فلا يشركون معه أحدا ولا يرجون من غيره على الدعاء ثوابا . وهو كقوله : « إِيَّمَا نَطَعَكُمْ لَوْ جِئَ اللَّهُ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا » .

روى أحمد وابن جرير والطبراني في جماعة آخرين عن عبد الله بن مسعود قال : « مرَّ المَلَأُ من قريش على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين ، فقالوا يا محمد أَرْضَيْتَ بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك : فلعلك إن طردتهم أن نتبعك ، فأنزل الله فيهم القرآن : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم - إلى قوله - أليس الله بأعلم بالشاكرين) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : مشى عُتْبَةُ بن ربيعة وشيبة ابن ربيعة وقرظة بن عمرو والحارث بن عامر في أشرف الكفار من بني عبد مناف إلى أبي طالب فقالوا له : لو أن ابن أخيك طرد عنا هؤلاء الأعبد فإنهم عبيدنا وعسفاؤنا . (واحدها عسيف ، وهو الأجير) كان أعظم له في صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقه ، فذكر ذلك أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت يا رسول الله حتى تنظر ما يريدون بقولهم وما يصيرون إليه من أمرهم . فأنزل الله : (وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم - إلى قوله أليس الله بأعلم بالشاكرين) .

قال : وكانوا بالالا وعمار بن ياسر وسالما مولى أبي حذيفة . وصُبيحاً مولى أسيد ، ومن الخلفاء ابن مسعود والمقداد بن عمرو وواقد بن عبد الله الحنظلي وعمرو بن عبد

عمرو ذو الشمالين ومرثد بن أبي مرثد وأشباههم ، ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء : « وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا « الآية . فلما نزلت أقبل عمر بن الخطاب فاعتذر فأنزل الله : « وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا « الآية . والعبرة من هذا أن أول أتباعه كانوا كأتباع من تقدمه من الرسل صلوات الله عليهم من الضعفاء والفقراء ، وأن أعداءه كأعدائهم هم المترفون من الرؤساء والسادة ، وأنهم كانوا يحتقرون السابقين إلى الإيمان ويندمونهم ويعدون أنفسهم معذورين بعدم رضاهم بمساواتهم ؛ بل قد اقترحوا على الرسل طردهم وإبعادهم كما في هذه الآية وكما في قوله في سورة هود حاكيا قول الأشراف من قوم نوح عليه السلام : « وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُطَارِدُوا « وقوله لهم : « وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَسِنِيُّ أَرَاكُمُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ » .

(ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم)
 أى ما عليك شيء من أمر حساب هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، كما أنه ليس عليهم شيء من أمر حسابك على أعمالك ، حتى يكون هذا أو ذاك سببا في طردك إياهم بإساءتهم في عملهم أو في محاسبتك على عملك ، فإن الطرد جزاء والجزاء إنما يكون على سبب الأعمال ولا يثبت ذلك إلا بالحساب .
 والمؤمنون ليسوا بعبيد للرسل ولا أعمالهم الدينية لهم ، بل هي لله يريدون بها وجهه لا أوجه الرسل وحسابهم عليه تعالى لا عليهم ، والرسل هداة مرشدون ، لا أرباب مسيطرون : « فَذَكَرْهُمْ إِذِمَّا أَنْتَ مُذَكَّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ » وإذا لم يكن للرسل حق السيطرة على الناس ومحاسبتهم على أعمالهم الدينية ، فأجدر بالناس ألا يكون لهم هذا الحق على أنبيائهم .

(فتكون من الظالمين) أى لا تطرد هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي فتكون بطردك إياهم في زمرة الظالمين معدودا من جنسهم ، لأن الطرد لا يكون حقا

إلا على الإساءة في الأعمال التي يعملونها لمن له حق حسابهم وجزائهم عليها ، ولست أنت بصاحب هذا الحق حتى تجرى فيه على صراط العدل ، فإن عملهم هو عبادة الله وحده ، فحسابهم وجزاؤهم عليه كما قال نوح عليه السلام : « إِنَّ حِسَابَهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ » .

والخلاصة — إن هذه الآية الكريمة أفادت :

(١) أن الرسول لا يملك التصرف في الكون .

(٢) أنه لا يعلم الغيب .

(٣) أنه ليس بملك .

(٤) أنه لا يملك حساب المؤمنين ولا جزاءهم .

(وكذلك فتننا بعضهم ببعض) أي ومثل ذلك الفتن أي الابتلاء والاختبار ،

فتننا بعضهم ببعض : أي جعلنا على حسب سنتنا في غرائز البشر وأخلاقهم — بعضهم فتننة لبعض تظهر به حقيقة حاله ، كما يظهر للصائغ حقيقة الذهب والفضة بفتنتهما بالنار .

(ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟) أي لتكون العاقبة أن يقول

المفتونون من الأقوياء في شأن الضعفاء من المؤمنين : أهؤلاء الصعاليك من العبيد والموالى والفقراء والمساكين خصهم الله بهذه النعمة العظيمة من جعلتنا أو من مجموعنا ؟ .

والخلاصة — إن ذلك لن يكون لأنهم هم المفضلون عند الله بما آتاهم من غنى

وثرورة وجاه وقوة ، فلو كان هذا الدين خيرا لمنحهم إياه دون هؤلاء الضعفاء كما أعطاهم

من قبل الجاه والثرورة ، وقد حكى الله عنهم مثل هذا بقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

لَلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانُوا خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ » ورد الله عليهم مقاتلهم الدالة على

التعوت والاستكبار بقوله :

(أليس الله بأعلم بالشاكرين) أي إن المستحق لمن الله وزيادة نعمه إنما

هو من يقدّر لها قدرها ويعرف حق المنعم بها فيشكره عليها لا من سبق الإنعام عليه

فكفر وبطر ، وعتا واستكبر .

وبهذا مضت سنة الله في عباده ، ولولا هذا لكانت النعم خالدة لا تنزع ممن أوتيتها وإن كفر بها ، وهل فتن أولئك الكبراء إلا بما حصل لهم من الغنى والقوة ؟ فظنوا جهلا منهم بسنة الله في أمثالهم أنه تعالى ما أعطاهم ذلك إلا تكريما لذواتهم وتفضيلا لهم على غيرهم .

وفي الآية إيماء إلى أن ما اغتروا به من النعم إن يدوم ولا يبقى المؤمنون على الضعف الذى صبروا عليه بل لا بد أن تنعكس الحال فيسلب الأقوياء ما أعطوا من قوة ومال ، وتداول الدولة لهؤلاء الضعفاء من المؤمنين فيكونوا هم الأئمة الوارثين « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » .

كذلك فيها إشارة إلى أن تركهم للإيمان لم يكن إلا جحودا ناشئا عن الكبر والعلو فى الأرض لاعن حجة ولا شبهة ، وإلى أن ضعفاء المؤمنين السابقين لم يفتنوا بغنى كبراء المشركين وقوتهم .

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ (٥٥) .

شرح المفردات

السلام والسلامة : البراءة والعافية من الآفات والعيوب ، والسلام : من أسمائه تعالى يدل على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من نقص وعجز وفناء ، واستعمل السلام فى التحية بمعنى السلامة من كل ما يسوء ، وبمعنى تأمين المسلم عليه من كل أذى

يناله من المسلم فيود دليل المودة والصفاء ، وهو تحية أهل الجنة يحيمهم بها ربهم جل وعلا وملائكته الكرام ، ويحيى بها بعضهم بعضا ، وكتب : أوجب ، والجهالة : السفه والخفة التي تقابل الحكمة والروية ، وتستبين : تتضح وتظهر ، يقال : استبنت الشيء وتبينته : أى عرفته بينا واضحا .

المعنى الجملى

بعد أن نهى الله نبيه عن طرد المستضعفين من حضرته استمالة لكبراء المتكبرين من قومه وطمعا في إقبالهم عليه وسماعهم لدعوته كما اقترحه بعض المشركين . أمره بأن يلقي الذين يدخلون فى الإسلام أما بعد أم عن بينة وبرهان ، بالتحية والسلام والتدخير برحمة الله ومغفرته ، فقد كان السواد الأعظم من الناس كافرين إما كفر جحود وعناد وإما كفر جهل وتقليد للآباء والأجداد ، وكان يدخل فى الإسلام الأفراد بعد الأفراد ، وكان أكثر السابقين من المستضعفين والفقراء ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكون تارة معهم يعلمهم ويرشدهم ، وتارة يتوجه إلى أولئك الكافرين يدعوهم وينذرهم .

الإيضاح

(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) أى وإذا جاءك القوم الذين يصدقون بكتابنا وحججنا ويقرون بذلك قولنا وعملا سائلين عن ذنوبهم التي فرطت منهم ، هل لهم منها توبة فلا تؤيسهم منها وقل لهم سلام عليكم أى أمانة الله لكم من ذنوبكم أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها .

(كتب ربكم على نفسه الرحمة) أى قل لهم أوجب الله على ذاته المقدسة تفضلا منه وإحسانا ، الرحمة بخلقه فإن فيا سخر للبشر من أسباب المعيشة للمادية ، وفيها آتاهم من وسائل العلوم الكسبية — آيات بينات على سعة الرحمة الربانية وتربية عباده بها فى حياتهم الجسدية والروحية .

ثم بين أصلا من أصول الدين فى هذه الرحمة للمؤمنين فقال :

(أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم)
 أى إن من عمل منكم عملاً تسوء عاقبته للضرر الذى حرمه الله لأجله حال كونه ملتبساً
 بجهالة دفعته إلى ذلك السوء كغضب شديد حمله على السب والضرب أو شهوة مغتامة
 قادتة إلى انتهاك عرض ، ثم تاب ورجع عن ذلك السوء بعد أن عمله شاعراً بقبحه
 نادماً عليه خائفاً من عاقبته ، وأصلح عمله بأن أتبع ذلك العمل السيء بعمل يضاده
 ويذهب أثره من قلبه ، حتى يعود إلى النفس زكاًؤها وطهارتها وتصير أهلاً للقرب
 من ربها - فشأنه تعالى فى معاملته أنه واسع المغفرة والرحمة فيغفر له ما تاب عنه
 ويتغمده برحمته وإحسانه .

وقد بين الله فى هذه الآية من أنواع الرحمة المكتوبة لعباده ما هم أحوج إلى
 معرفته بنص الوحي وهو حكم من يعمل السوء بجهالة من عباده المؤمنين ، وبقية
 أنواعها يمكن أن يستدل عليها بالنظر فى الأنفس والآفاق ، وأمر نبيه بتبليغها لمن
 يدخاؤون فى الدين ليبتدوا بها حتى لا يغتروا بغفرة الله ورحمته فيحملهم الغرور على
 التفريط فى جنب الله والغفلة عن تزكية أنفسهم ، وحتى يبادروا إلى تطهيرها من
 إفساد الذنوب خوف أن تحيط بها خطيئتها : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
 السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ » .

(وكذلك فصل الآيات ولتستبين سبيل الجرمين) أى ومثل ذلك التفصيل
 البديع الواضح فصل لك أدلتنا فى بيان الحقائق التى يهتدى بها أهل النظر والفكر
 لما فيها من العلم والحكمة والموعظة والعبرة ولتوضح لك وللمؤمنين طريق الجرمين
 إذ يعلم من هذا التفصيل أن ما خلفه هو سبيل الجرمين ، إذ الأشياء تعرف بأضدادها
 كما قيل : (وبضدها تميز الأشياء) .

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، قُلْ لَا أَتَّبِعُ
 أَهْوَاءَكُمْ ، قَدْ صَلَّيْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ

رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
يَقْضِي الْحَقَّ ، وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ
لَقُضِيَ الْأَمْرُ يَوْمَ يَبْيُئِي وَيُنْكَمُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) .

شرح المفردات

النهى : الزجر عن الشيء بالقول نحو اجتنبت قول الزور ، والكف عنه بالفعل .
كما قال تعالى : « وَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى » والدعاء : النداء لطلب إيصال الخير
أو دفع الضر ، ولا يكون عبادة إلا إذا كان فيما وراء الأسباب العادية التي سخرها
الله للعباد وينالونها بكسبهم واجتهادهم وتعاونهم عليها . والبيئة : كل ما يتبين به
الحق من الحجج العقلية أو الآيات الحسية ، ومن ذلك تسمية الشهادة بيئة .
والقصص : ذكر الخبر . أو تتبع الأثر ، والفصل : القضاء والحكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه يفصل الآيات ليظهر الحق وليستبين سبيل
المجرمين ، ذكر هنا أنه نهى عن سلوك سبيلهم ، وسبيلهم هو عبادة غير الله ، وأن
هذه العبادة إنما هي بحض الهوى والتقليد ، لا سبيل الحجة والبرهان ، فهي جمادات
وأحجار ينحتونها بأيديهم ويركبوها ثم يعبدونها .

الإيضاح

(قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله) أى قل أيها الرسول
لهؤلاء الداعين لك إلى الإشراف : إني نهيت أن أعبد الذين تدعونهم وتستغيثون بهم
من دون الله أى غير الله من الملائكة والصالحين من عباده ، دع مادونهم من الأصنام
والأوثان التي لا علم لها ولا عمل .

وهذا النهى شامل لنهى الله عنه فى كتابه الكريم فى كثير من الآيات ،
ولأمر الله بضده وهو دعاؤه وحده ، ولنهى العقل والفترة السالمة قبل إرسال الأنبياء .

(قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتمدين) أى قل لهم ما أتبعكم
على ما تدعوننى إليه من هذه العبادة ولا فى غيرها من الأعمال لأنها مؤسسة على
الهُوى ، وليست على شىء من الحق والهدى ، فإن فعلت ذلك فقد تركت محجة
الحق وسرت على غير هدى ، فصرت ضالاً مثلكم وخرجت من عداد المهتمدين ،
وفى هذا تعريض بأنهم ليسوا من الهداية فى شىء .

(قل إني على بينة من ربي) أى قل لهم أيها الرسول إني فيما أخالفكم فيه على
بينة من ربي أى على بيان قد تبينته وبرهان قد وضح لى من ربي بالوحى والعقل ،
إذ القرآن بينة مشتملة على ضروب كثيرة من البينات العقلية والكونية التى يعجز
الرسول عن الإتيان بمثلمها .

(وكذبتم به) أى والحال أنكم كذبتم به أى بالقرآن الذى هو بينتى من ربي
ومن عجيب أمركم أنكم تكذبون بينة البينات ثم تطعمون أن أتبعكم على ضلال من
أمركم لا بينة لكم عليه إلا محض التقليد ، والتقليد براءة من الاستدلال ورضا يجوز
الآباء والأجداد .

وفى الكلام حجة دامغة وبينة ناصعة على ما قبلها من نفي عبادته صلى الله عليه
وسلم للذين يدعونهم من دون الله .

وبعد أن بين تكذبيهم به تفى عليه برد شبهة تخطر عند ذلك بالبال ، وهى أن
الله أنذرهم عذاباً يحل بهم إذا أصروا على عنادهم وكفرهم ، ووعد بأن ينصر رسوله
عليهم ، وقد استعجلوا النبي صلى الله عليه وسلم فكان عدم وقوع ذلك شبهة لهم على
صدق القرآن ، إذ هم يجهلون سنة الله فى شئون الإنسان ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم :
(ما عندى ما تستعجلون به) أى ما الذى تستعجلون به من نعم الله وعذابه

بيدى ولا أنا على ذلك بقادر ، ولم أقل لكم إن الله فوض أمره إلىّ حتى تطالبونى به وتعدّون عدم إيقاعه حجة على تكذيبه .

(إن الحكم إلا لله) أى ما الحكم فى هذا وفى غيره من التصرف فى شئون الأمم إلا لله وحده ، وله فى ذلك سنن حكيمة تجرى عليها أفعاله وأحكامه فلا يتقدم شىء منها عن ميقاته ولا يتأخر : « وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » .

(يقص الحق وهو خير الفاصلين) أى يقص على رسوله القصص الحق فى وعده ووعيده وجميع أخباره ، وهو خير الحاكمين فى كل أمر ، فهو لا يقع فى حكمه وقضائه حيف إلى أحد ولا جور ، وهو النافذ حكمه فى كل شىء ، والمحيط علمه بكل شىء .

(قل لو أن عندى ما تستعجلون به لطفى الأمر بينى وبينكم) أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يستعجلون العذاب بقولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

لو أن عندى ما تستعجلون به بأن مكنتى الله من التصرف فيه وجعله من قدرتى الكسبية ، لطفى الأمر بينى وبينكم فأهلككم عاجلا غضبا لربى ، واقتصاصا من تكذيبكم ولتخلصت منكم سرى العاصم عن تبليغ دعوة ربى وصدكم الناس عنى ، وقد وعدنى ربى بنصر المؤمنين الصالحين وخذلان الكافرين الفاسدين .

(والله أعلم بالظالمين) الذين لا رجاء فى رجوعهم عن الظلم إلى الإيمان والحق والعدل ، ومن ثم لم يجعل أمر عقابهم إلىّ ، بل جعله عنده ووقت له ميقاتا هو أعلم به ، ترونه بعيدا ويراه قريبا : « وَالِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » .

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ ،
وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ ، وَلَا رَطْبٌ

وَلَا يَأْسِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ
 مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ
 مَرْجِعُكُمْ ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ
 عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ
 رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ، أَلَا لَهُ
 الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) .

شرح المفردات

المفاتيح واحدها مفتاح : (بفتح الميم) وهو الخزن : (ويكسرهما) هو المفتاح
 الذى تفتح به الأقفال ، والبحر: كل مكان واسع حاو للكثير من الماء ، والبر: ما يقابله،
 والتوفى: أخذ الشئ وافيأ أى تاما كاملا ويقابله التوفية، وهو إعطاء الشئ تاما كاملا ،
 ويقال وفاه حقه فتوفاه منه قال تعالى : « وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ » ويقال
 توفاه واستوفاه : أحصى عدده ثم أطلق التوفى على الموت ، لأن الأرواح تقبض وتؤخذ
 أخذًا تاما ، وأطلق على النوم كما فى هذه الآية وفى آية الزمر ، والجرح : يطلق على
 العمل والكسب بالجوارح وعلى التأثير الدامى من السلاح وما فى معناه كالبرائن
 والأظفار والأنياب من سباع الطير والوحش ، وتسمى الخيل والأنعام المنتجة جوارح
 أيضا ، لأن نتائجها تسبها ، والجرح كالكسب يطلق على الخير والشر ، والاجتراح فعل
 الشر خاصة فى قوله تعالى : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ
 كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » ويبعثكم : يوقظكم من النوم ، ويقضى : ينفذ ،
 والأجل المسمى : هو مدة بقائه فى الدنيا . والحفظة : هم الكرام الكاتبون من الملائكة
 « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ حَافِظِينَ كَرِيمًا كَاتِبِينَ » .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبين للمشركين أنه على بينة من ربه فيما بلغهم إياه من رسالته ، وأن ما يستعجلونه من عذاب الله تعجيزاً أو تمهكاً ليس عنده ، وإنما هو عند الله ، وقد قضت سنته أن يجعل لكل شيء أجلاً وموعداً لا يتقدم ولا يتأخر ، وأن الله تعالى هو الذى يقضى الحق ويقصه على رسوله - ذكر هنا أن مفاتيح الغيب عنده ، وأن التصرف فى الخلق بيده ، وأنه هو القاهر فوق عباده لا يشاركه أحد من رسله ولا من سواهم فى ذلك .

الإيضاح

(وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو) أى إن خزائن الغيب عند الله وهو المتصرف فيها وحده ، وكذلك المفاتيح أى الوسائل التى يتوصل بها إلى علم الغيب هى عنده أيضاً لا يعلمها علماً ذاتياً إلا هو ، فهو الذى يحيط بها علماً وسواد جاهل بذاته لا يعلم منها شيئاً إلا بإعلامه عز وعلواً ، فعلينا أن نفوض إليه إنجازه وعده لرسوله بالنصر ، ووعيدته لأعدائه بالعذاب والقهر ، وأن نجزم بأنه لا يخلف وعده رسوله ، وإنما يؤخر تنفيذه إلى الأجل الذى اقتضته حكمته .

روى البخارى عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح الغيب خمس » : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ما إذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » وما حكاها الله عن عيسى عليه السلام من قوله : « وأنبئكم بما تأنون وما تدخرون فى بيوتكم » وما قاله يوسف عليه السلام لصاحبه السجن : « لا يأتىكما طعام تزرعانه إلا أنبأكما بتأويله قبل أن يأتكما »

داخل فيما يظهر الله عليه رسله من علم الغيب كما قال في سورة الجن : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ » ، وجاء في معنى الآية قوله تعالى : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمِمَّا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » وقوله : « إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » .

وروى البخارى عن عمران بن حصين مرفوعا : « كان الله ولم يكن شىء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شىء ، وخلق السموات والأرض » . لهذا الحديث والآثار المروية اتفق علماء التفسير بالماثور على تفسير الكتاب المبين وأم الكتاب والذكر في نحو ما تقدم من الآيات - باللوح المحفوظ ، وهو شىء أخبر الله به وأنه أودعه كتابه ولم يعرفنا حقيقته . فعلينا أن نؤمن بأنه شىء موجود وأن الله قد حفظ فيه كتابه ؛ وأما دعوى أنه جرم مخصوص في سماء معينة فما لم يثبت عن المعصوم صلى الله عليه وسلم بالتواتر ، فلا ينبغي أن يدخل في باب العقائد لدى المؤمنين .

وروى عن الحسن أن حكمة كتابة الله لمقادير الخلق تنبيه المكلفين إلى عدم إهمال أحوالهم المشتملة على الثواب والعقاب ، وزاد بعضهم حكمتين أخريين :

- (١) اعتبار الملائكة عليهم السلام بموافقة الحدّثات للمعلومات الإلهية .
- (٢) عدم تغيير الموجودات عن الترتيب السابق في الكتاب ، ويؤيده ما روى

البخارى عن أبي هريرة : « جف القلم بما أنت لاق » .

(ويعلم ما فى البر والبحر) أى وعنده علم ما لم يغيب عنكم ، لأن ما فيهما ظاهر

للعين يعلمه العباد ، وعلمه تعالى بما فيهما علم شهادة مقابل لعلم الغيب .

والخلاصة - إن عنده علم ما غاب عنكم مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثر الله

بعلمه ، وعنده علم ما يعلمه جميعكم لا يخفى عليه شىء منه ، فعنده علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة .

(وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) أى وما تسقط ورقة من نجم أو شجر فى الصحارى والبرارى ، أو فى الأمصار والقرى إلا والله علم بها .

(ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) أى وما تسقط من حبة بفعل الإنسان باختياره كالحب الذى يلقىه الزراع فى بطون الأرض يسترونه بالتراب فيحتجب عن نور النهار ، أو تذهب به النمل فى قراها وجحورها ، أو بغير فعل الإنسان كالذى يسقط من النبات فى الشقوق والأخاديد ، وما يسقط من الثمار رطبا ويابسا - إلا وهو فى كتاب مبين وهو اللوح المحفوظ الذى كتب ذلك فيه وكتب عدده والوقت الذى يوجد فيه والذى يقضى فيه ، وهو مبين ، أى مبين عن صحة ما هو فيه بوجود ما رسم فيه على ما رسم ، وهذا هو الذى اختاره الزجاج لقوله فى الآية الأخرى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا » .

واختار الزاوى أن الكتاب المبين علم الله تعالى الذى يشبه المكتوب فى الصحف بثباته وعدم تغيره .

(وهو الذى يتوفاكم بالليل) أى يتوفى أنفسكم حال نومكم بالليل أى يزيل إحساسها ويمتعتها من التصرف فى الأبدان ، واقتصر على الليل وإن كان ذلك يقع فى النهار لأن الغالب أن يكون النوم فيه ، وفى معنى الآية قوله تعالى : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » . (ويعلم ما جرحتم بالنهار) أى ويعلم جميع عملكم وكسبكم حين اليقظة ويكون معظم ذلك فى النهار سواء أكان خيرا أم شرا .

(ثم يبعثكم فيه) أى ثم إنه بعد توفيقكم بالنوم يثبركم ويرسلكم منه فى النهار .

(ليتقضى أجل مسمى) أى يوظفكم ويرسلكم لكسب أرزاقكم وأقواتكم، ومناجاة إلهكم وخالفكم، لأجل أن يقضى وينفذ الأجل المسمى الذى فى علمه تعالى لكل فرد منكم، فإن لأعماركم أجالا مقدرة مكتوبة لا بد من قضائها وإتمامها .
 (ثم إليه مرجعكم) أى ثم إليه رجوعكم إذا انقضت آجالكم وتم .
 (ثم ينبتكم بما كنتم تعملون) أى ثم يخبركم بما كنتم تعملون فى حياتكم الدنيا ويجازيكم بذلك إن خيرا فخير، وإن شرا فشر .

والتقادر على البعث من توفى النوم قادر على البعث من توفى الموت .
 وفى ذكر الأجل المسمى والرجوع إلى الله تعالى لأجل الحساب والجزاء إيماء إلى تأييد ما تقدم من حكمة تأخير ما كان يستعجله مشركو مكة من وعيد الله لهم ووعده لرسله بالنصر عليهم وبيان عذاب الآخرة فوق ما أنذروا به من عذاب الدنيا، فن لم يدركه العذاب الأول لم يفلت من الثانى .

وبعد أن أبان سبحانه أمر الموت والرجوع إلى الله للحساب والجزاء، ذكر قهره لعباده وإرسال الحفظة لإحصاء أعمالهم وكتابتها عليهم فقال :
 (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) أى إنه تعالى هو الغالب خلقه العالى عليهم بقدرته وسلطانه لا المقهوزون من الأوثان والأصنام المغلوبون على أمرهم، ويرسل عليكم حفظة من الملائكة يتعاقبونكم ليلا ونهارا يحفظون أعمالكم ويحسبونها، ولا يفرطون فى حفظ ذلك وإحصائه ولا يضيعون شيئا منها . وإرسال الحفظة عليهم مراقبتهم لهم وإحصاء أعمالهم وكتابتها وحفظها فى الصحف التى تنشر يوم الحساب، وهى المرادة بقوله تعالى : « وَإِذَا السُّحُفُ نُشِرَتْ »

وهؤلاء الحفظة هم الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم: « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كَرِيمًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ » ونحن نؤمن بهذه الكتابة ولا نعرف صفتها ولا نتحكم فيها بأرائنا .

وما مثل مراقبة أولئك الحفظة إلا مثل : (مراقبة رجال البوليس السرى فى حكومات العصر الحديث) .

روى ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى الآية : الملوك يتخذون الحرس يحفظونهم من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم ، يحفظونهم من القتل ، ألم تسمع أن الله تعالى يقول : « وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ » لم يغن الحرس عنهم شيئاً ، وفى معنى الآية قوله : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة مرفوعاً « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار يجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ثم يعرج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون » .

والحكمة فى كتابة الأعمال وحفظها على العاملين أن المكلف إذا علم أن أعماله تحفظ عليه وتعرض على رءوس الأشهاد كان ذلك أزجر له عن الفواحش والمنكرات وأبعث له على عمل الصالحات ، فإن المرء إن لم يصل إلى مقام العلم الراسخ الذى يثمر الخشية لله والمعرفة الكاملة الذى يثمر الحياء ، ربما غاب عليه الغرور بالكرم الإلهى والرجاء فى المغفرة والرحمة فلا يكون لديه من الخشية والحياء ما يزجره عن العصية ، كما يزجره توقع الفضيحة فى موقف الحساب على أعين الخلائق وأسماعهم ، كما قال تعالى : (وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَقَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ، وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) .

(حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) أى يرسل عليكم

حفظه من الملائكة يراقبونكم ويحصون عليكم أعمالكم مدة حياتكم ، حتى إذا جاء أحدكم الموت وانتهى عمله ، توفته وقبضت روحه رسائنا الموكلون بذلك من الملائكة وهؤلاء الرسل هم أعوان ملك الموت الذين يتولون ذلك بأمره كما قال تعالى :

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) .

روى ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع بن أنس أنه سئل عن ملك الموت أهو وحده الذى يقبض الأرواح ؟ قال هو الذى يلى أمر الأرواح وله أعوان على ذلك ، وقرأ الآية ، ثم قال غير أن ملك الموت هو الرئيس .

وروى عن إبراهيم النخعي ومجاهد وقتادة ، أن الأعوان يقبضون الأرواح من الأبدان ثم يدفعونها إلى ملك الموت . وعن الكلبى أن ملك الموت هو الذى يتولى القبض بنفسه ويدفعها إلى الأعوان ، فإن كان الميت مؤمنا دفعها إلى ملائكة الرحمة وإن كان كافرا دفعها إلى ملائكة العذاب : أى وهم يتوجهون بالأرواح إلى حيث يوجههم الله بأمره ، وعلينا أن نؤمن بذلك ولا نبحث عن كيفية .

وجاء إسناد التوفى إلى الله فى قوله : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » إما لأنه هو الأمر لملك الموت ولأعوانه جميعا بذلك - وإما لأنه هو الفاعل الحقيقى والسخر لملك الموت وأعوانه فهم لا يعملون إلا بأمره ولا يتصرفون إلا بتسخيره .

(ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) أى ثم يرد أولئك الذين تتوفاهم الرسل إلى الله الذى هو مولاهم ومالك أمورهم ، وهو الحق الذى لا يقضى إلا بالعدل ، ليحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم .

وفى الآية إيماء إلى أن ردهم إليه حتم ، لأنه هو سيدهم الذى يتولى أمورهم ويحكم بينهم بالحق .

وأما تولى بعض العباد أمور بعض بملك الرقبة أو ملك التصرف والسياسة ، فنه ما هو باطل من كل وجه ، ومنه ما هو باطل من حيث إنه موقوت لاثبات له ولا بقاء ، وحق من حيث إن مولاهم الحق أقره فى سننه الاجتماعية أو شرائعه المنزلة

لمصلحة العباد العارضة مدة حياتهم الدنيا ، وقد زال كل ذلك بزوال عالم الدنيا وبقي المولى الحق وحده .

(أله الحكم وهو أسرع الحاسنين) أى له الحكم وحده ليس لغيره منه شيء فى ذلك اليوم كما قال : « إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ » وقال : « وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ مُّحْكَمُهُ إِلَى اللَّهِ » وقال : « قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

وسرعة حسابه - أنه يحاسب العباد كلهم فى أسرع زمن وأقصره ، لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره ، ولا يشغله شأن عن شأن .
وإنخلاصة - إنه تعالى أسرع الحاسنين إحصاء للأعمال ومحاسبة عليها .

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً :
لَنْ أُنْجَاكُمْ مِنْ هَذِهِ لَنْ كُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ
مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) .

شرح المفردات

ظلمات البر والبحر : ضربان ، ظلمات حسية كظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر ، وظلمات معنوية كظلمة الجهل بالمسالك والطرق ، وظلمة فقد الأعلام والمنار ، وظلمة الشدائد والأخطار كالعواصف والأعاصير وهياج البحار ، إلى نحو ذلك من الشدائد التى تبطل الحواس وتدهش العقول ، قال الزجاج : العرب تقول لليوم الذى فيه شدة : يوم مظلم ويوم ذوكواكب أى إنه قد اشتدت ظلمته حتى صار كالليل فى ظلمته ، وفى المثل : رأى الكواكب ظهرا ، أى أظلم عليه يومه

لاشتداد الأمر فيه حتى كأنه أبصر النجم نهارا ، والتضرع: المبالغة في الضراعة ، وهى الدل والخضوع ، والمراد منه هنا ما كان صادرا عن الإخلاص الذى يثيره الإيمان الفطرى المطوى فى أنفس البشر ، والخفية (بالضم والكسر) الخفاء والاستتار ، والدعاء قد يكون بالجهر ورفع الصوت مع البكاء ، وقد يكون بالإسرار هربا من الرياء ، فتارة يجأر المرء بالدعاء رافعا صوته متضرعا مبهتلا ، وأخرى يسر الدعاء ويخفيه مخلصا محتسبا ، ويتخفى ألا تسمعه أذن ولا يعلم به أحد ، ويرى أنه يكون بذلك أجدر بالقبول وأرجى لنيل المستول ، والكرب: الغم الشديد .

المعنى الجملى

بعد أن أبان الله لعباده إحاطة علمه وشمول قدرته ، واستعلاءه عليهم بالقهر ، وحفظه أعمالهم عليهم - ذكرهم هنا بالدلائل الدالة على كمال القدرة الإلهية ونهاية الرحمة والفضل والإحسان .

الإيضاح

(قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الغافلين عن أنفسهم وعمأ أودع فى الآفاق من آيات التوحيد : من ينجيكم من ظلمات البر إذا ضلتم فيه فتحيرتم وأظلمت عليكم المحجة ، ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه فأظلم عليكم فيه السبيل فلم تهتدوا - غير الله الذى إليه مفزعكم بالدعاء تضرعا منكم إليه معلنين الدعاء تارة ومخفين له أخرى .

(ائمن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) أى قائلين ائمن أننجيتنا من هذه الظلمات التى نحن فيها لنكونن ممن يوحدك بالشكر ويخلص لك بالعبادة دون من نشركه معك فى عبادتك .

وفى معنى الآية قوله : « هُوَ الَّذِى يُسِّرْكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ

فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبِيبَةٍ وَقَرَحُوا بِهَا جَاءَتَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ
 الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَأَنَّ
 أَنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ .

(قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون) أى إن الله ينجيكم
 المرة بعد المرة من تلك الظلمات ومن كل كرب يعرض لكم ، ثم أنتم تشركون به
 غيره بعد النجاة أقبح الشرك ، حال كونكم مخلقي وعدمكم له بالشكر حائثين بما وكدموه
 من الأيمان .

وأظهر أنواع الشرك أنكم تدعون أولياء من دون الله وتنسبون إليهم الشفاعة
 عنده ، حتى هذه النجاة التي نجاكموها .

والخلاصة — إنه إذا شهدت الفطرة السليمة بأنه لا ملجأ في هذه الحالة إلا إلى
 الله ولا تعويل إلا على فضله ، فالواجب أن يبقى هذا الإخلاص في جميع الأحوال
 والأوقات ، لكن الإنسان بعد الفوز بالسلامة والنجاة يحيل ذلك إلى الأعمال
 الجسدية أو إلى نحو ذلك من الأسباب ويعود إلى الشرك في العبادة ولا يوفى بالعباد .
 وفي الآية تنبيه إلى أن من أشرك في عبادة الله تعالى فكأنه لم يعبد رأساً ،
 فالتوحيد ملاك الأمر وأساس العبادة .

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ
 تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ، أَنْظُرْ
 كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ
 الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ (٦٧) .

شرح المفردات

الشيعة : واحدهم شيعة ، وهم كل قوم اجتمعوا على أمر ، قال تعالى : « كَمَا فَعِلْنَا بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ » ويلبسكم : أى يخلط أمركم خلط اضطراب لاخلط اتفاق فيجعلكم فرقا مختلفة لافرقه واحدة ، ونصرف الآيات : نحولها من نوع إلى آخر من فنون الكلام تقريرا للمعنى وتقريبا إلى الفهم ، والفقه : فهم الشيء بدليله وعلته المفضى إلى الاعتبار والعمل به ، والوكيل : هو الذى توكل إليه الأمور ، ومستقر : وقت استقرار ووقوع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الله المشركين ببعض آياته فى أنفسهم وبمنه عليهم ، بإنجائهم من الأهوال والكروب التى يشعر بها كل من وقعت له منهم إما بتسخير الأسباب ، وإما بدقائق اللطف والإلهام .
ذكر هنا قدرته على تعذيبهم ، وأبان أن عاقبة كفران النعم أن تزول وتحل محلها النقم ، وأن الله يهمل ولا يهمل ، بل يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

الإيضاح

(قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض) أى قل أيها الرسول لقومك الذين يشركون مع الله سواه ، ولا يشكرون نعمه التى أسداها إليهم : إن الله هو القادر على أن يرسل عليكم عذابا تجهلون حقيقته ، فيصب عليكم من فوقكم ، أو يثبزه من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم ويخلطكم فرقا وشيعا على أهواء شتى ، كل فرقة تشايح إماما فى الدين أو تتعصب لملك أو رئيس ، أو يذيق بعضكم بأس بعض فيقتل بعضكم بيد بعض .

وقد ورد فى التفسير بالمأثور ، أن المراد بالعذاب من فوق الرجم من السماء

والطوفان كما وقع لبعض الأمم القديمة ، وبالعذاب من تحت : الخسف والزلازل المعهودة قديما وحديثا ، وروى عن ابن عباس أن المراد بمن فوقكم أى من أمرائكم ، ومن تحت أرجلكم : أى عبيدكم وسفلكم .

ولاشك أن لفظ العذاب مبهم قصد به هذا الإيهام لأجل الشمول ، فينطلق على ما يدل عليه اللفظ مما يحدث في المستقبل أو ينكشف للناس فيه ما كان خفيا عنهم ، فالقرآن لا تنفى عجائبه ، وفيه نبأ من قبل نبأ من كان في زمن التنزيل ونبأ من سيحيى بعدهم .

فهذه الآية ظهر تفسيرها بأجل برهان في هذه الحروب في العصر الحديث مما لم يسبق له نظير ولم يكن البشر على علم منه ، فقد أرسل الله فيها على الأمم المحاربة عذابا من فوقها بما تقذفه الطائرات والمطاور وقاذفات القنابل التي تحمل كل منها الآلاف المؤلفة من المواد المتفجرة من الحديد والمعادن الأخرى المهلكة ، ومن المواد المحرقة ، وصارت تمشى آلاف الأميال لتصل إلى أهدافها المقصودة فتخرب المدن والقرى ، وتجعل عاليها سافلها ، بما تصب فيها من عل ، من الحمم المتقدة والنيران المشتعلة ، حتى ليراعى الرأي كأنها بركان نائر يريد أن ينتلع من حوله ويلتهم جميع ما فوق سطح الأرض .

وكذلك مقذوفات المدافع البعيدة المدى التي تطلق قناتير من أفواها وترسله من فوق من مواد قاتلة مما لم يعرف الناس له نظيرا من قبل . وكذلك يأتيها العذاب من تحتها بما تحدث السفن العواصة في البحار بما ترسله من (الطوربيد) الحامل للقناتير المنطردة من مختلف المعادن وتتجهن به الفرض لمقابلة سفن العدو فتضربه عليها صبا . وتهلك به مختلف السفن ولا تقوى على النجاة منها مهما عظم حجمها ودق صنعها بل لا بد أن تهوى في قاع البحار إذا قدز لها أن تصاب به ، فكم من سفينة غرقت . وكم من روح زهق به وأصبح طعاما للسمك وحيوان البحر . وكذلك جعل أم أوروبا شيعا متعادية . وأذاق بعضها بأس بعض فحل بها من

التقتيل والتخريب ما لو لم نره بأعيننا ونسمع عنه الأحاديث المستفيضة التي لا تقبل شكاً ولا ريба - لكننا في موضع الشك فيه لغرابته وشدة هولاه وذهول الناس حين رؤيته ، فترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنهم من الذعر وشدة الخطب حيارى ، لا يدرون ما ذاهم فاعلون ، ولا أى مكان يسلكون ؛ ليتقوا ذلك الهلاك المحقق ، والعذاب الذى لا بد واقع بهم إلا من رحم الله .

وقد روى أحمد والترمذى عن سعد بن أبى وقاص قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية - قل هو القادر الخ - فقال : أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد . »

وروى البخارى والنسائى من حديث جابر قال : « لما نزلت هذه الآية : (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أعوذ بوجهك) قال : (أو من تحت أرجلكم) قال : (أعوذ بوجهك) (أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هاتان أهون أو أيسر) . »

وإنما كانت هاتان أهون أو أيسر لأن المستعاذ منه قبلهما هو عذاب الاستئصال بإحدى الخصلتين الأوليين حتى لا يبقى من الأمة أحد .

وروى عن ابن عباس من طريق أبى بكر بن مردويه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعا فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء والخسف من الأرض وألا يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع عنهم الخسف والرجم ، وأبى أن يرفع الآخرين » وروى مسلم من حديث ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله زوى (جمع) لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ، وأعطيتُ السكززين الأحمر والأبيض ، وإنى سألت ربى لأمتى ألا يهلكها بسنة عامة : (كالحجاعة والتحط والغرق والصيحة والرجفة والريح الصرصر)

وَأَلَّا يَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدَاؤُا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بِيضْتَهُمْ : (عزتهم ومستقر ملكهم) وإن ربي قال: يا محمد إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكتهم بسنة عامة والأسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من باقظارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضا .

وقد ظهر صدق الرسول صلى الله عليه وسلم في باوغ ملك أمته مشارق الأرض ومغارها وفي وقوع بأسهم بينهم ، وما زال ملكهم عن أكثر تلك الممالك إلا بتفرقهم ثم بمساعدتهم للأجانب على أنفسهم ، وكم تألبت عليهم الأمم فلم ينالوا منهم بدون ذلك منالا ، وما بقى لهم الآن إلا القليل الذي يطع فيه الطامعون . ومن هذا نعلم أن الله لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ما داموا مستمسكين بها .

يرشد إلى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قال قائل : يارسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » رواه أبو داود والبيهقي .

(انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون) أى تأمل بعين بصيرتك أيها الرسول كيف نصرف الآيات والدلائل وتتابعها على أنحاء شتى : منها ما طريقه الحسن ، ومنها ما طريقه العقل ، ومنها ما سبيله علم الغيب ، لعلهم يفقهون الحق ويدركون الحقائق بأسبابها وعللها التي تقضى إلى الاعتبار والعمل بها .

وأقرب الوسائل إلى تحصيل ذلك تصريف الآيات واختلاف الحجج والبيئات ، وبذا يتذكرون ويزدجرون عما هم عليه مقيمون من التكذيب بكتابنا ورسولنا ، وانكبابهم على عبادة الأوثان والأصنام .

(وكذب به قومك وهو الحق) أى وكذب قومك بالقرآن على ما صرّفنا فيه .

من الآيات الجاذبة إلى فقه الإيمان ، إذ يثبتها الحس والعقل والوجدان ، والحال أنه حق ثابت لا شك فيه ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .
 (قل لست عليكم بوكيل) أى قل لهم أيها الرسول إننى لست عليكم بحفيظ ولا رقيب ، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم ، أبشركم وأنذركم ولم أعط القدرة على التصرف فى عباده حتى أجهركم على الإيمان جبراً وأكرهكم عليه إكراها . « فَذَكَرْهُمْ إِيْمَانًا أَنْتَ مُذَكَّرْتُمْ عَلَيْهِمْ بِمُسِيئِهِمْ » « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ، فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ » .

(لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون) أى لكل شىء نبأ عنه ويخبر ، مستقر تظهر فيه حقيقته ويميز حقه من باطله ، فلا يبقى مجال للاختلاف فيه ، وسوف تعلمون مستقر ما أنبأكم به كتابى من وعد ووعد ، ومن ذلك ما وعد به الرسول من نصره عليهم ، وما أوعده أعداءه من الجزى والعذاب فى الدنيا والآخرة : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ كُفْرٌ بِكُمْ بِهِ مِنْ أُمَّلٍ مِّنْهُ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ . سَتَرْنَا لَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ لَيَبْئِينَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » .

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنسِيتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَغَرَسَهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَذَكَرُوا بِهِ أَنْ يُوَسِّلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ، وَإِنْ تَمَدَّدْ كُلَّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ

أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ، لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا
يَكْفُرُونَ (٧٠) .

شرح المفردات

أصل الخوض: الدخول في الماء والمرور فيه سيرا أو سباحة ، ثم استعمل في الاندفاع
في الحديث والاسترسال فيه ، والدخول في الباطل مع أهله ، وقد استعمله القرآن
بهذين المعنيين ، وأعرض عنهم : انصرف عنهم بدلا من القعود معهم والإقبال عليهم
بوجهك ، والذكرى الأولى : بمعنى التذكر والثانية بمعنى التذكير ، والبسل : حبس
الشيء ومنعه بالقهر ، ومنه أسد باسل وشجاع باسل أى مانع لما يريد حفظه أن ينال ،
وفسر هنا بالحبس في النار ، وبالحرمان من الثواب ، وبالفضيحة ، وتعديل : تفد ،
والعدل : الفداء ، والحميم : الشديد الحرارة ، وأليم : شديد الألم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر في الآيات السابقة تكذيب قريش بالقرآن ، وكون الرسول مبلغا
لاخلاقا للإيمان ، وأحاطهم في ظهور صدق أنبيائه وأخباره على ازمان .
بين في هذه الآيات السبيل في معاملة من يخوض في آيات الله بالباطل ، ومن
يتخذ دين الله هزوا ولعبا من الكفار الذين لم يجيبوا الدعوة .

روى عن سعيد بن جبير وابن جريج وقتادة ومقاتل والسدى أن هذه الآية
نزلت في المشركين المكذبين الذين كانوا يستهزئون بالقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم .
وروى عن ابن عباس وأبي جعفر ومحمد بن سيرين أنها نزلت في أهل الأهواء والبدع
من المسلمين الذين يؤولون الآيات بالباطل لتأييد ما استجدثوا من المذاهب والآراء
وتفنيد أقوال خصومهم بالجدل والمراء .

الإيضاح

(وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره) قال ابن جريج : كان المشركون يجلسون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يجيئون أن يسمعوا منه ، فإذا سمعوا استهزؤوا فنزلت : (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم) الآية . قال فجعل إذا استهزؤوا قام فحذروا وقالوا لا تستهزئوا فيقوم . والمخاطب بالآية الرسول صلى الله عليه وسلم ومن كان معه من المؤمنين ، ثم المؤمنون في كل زمان . أى وإذا رأيت أيها المؤمن الذين يخوضون في آياتنا المنزلة من الكفار المكذبين ، أو من أهل الأهواء المفرقين ، فصدّ عنهم بوجهك وقم ولا تجلس معهم ، حتى يخوضوا في حديث غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها من جانب الكفار أو تأويلها بالباطل من جانب أهل الأهواء ، تأييدا لما استحدثوا من مذاهب وآراء ، وتفنيدا لأقوال خصومهم بالشغب والجدل والمراء ، وإذا خاضوا في غير ذلك فلا ضير في التعود معهم .

وسر هذا النهي أن الإقبال على الخائضين والتعود معهم يغيرهم في التمدى فيما هم فيه ، ويدل على الرضا به والمشاركة فيه ، والمشاركة في ذلك كفر ظاهر ، لا يرتكبه إلا كافر مجاهر أو منافق مراء .

كما أن في التأويل لنصر البدع والآراء الفاسدة فتنة في الدين لا تنقص عن الأولى ضررا ، فإن أربابها تشبههم أنفسهم بأنهم ينصرون الحق ويخدمون الشرع ، ومن ثم حذر السلف من مجالسة أهل الأهواء أشد مما حذروا من مجالسة الكفار ، إذ لا يخشى على المؤمن من فتنة الكافر مقدار ما يخشى من فتنة المبتدع .

ومن الناس من يحرفون آيات الله عن مواضعها بهوهم ليكفروا بها مسلما أو يضلوا بها مهتديا ، بغيا عليه وحسد له .

(وإما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين) أى وإن

أنسك الشيطان النهى مرة وقعدت معهم وهم على تلك الحال ثم ذكرت ذلك فقم عنهم، ولا تقعد مع القوم الظالمين لأنفسهم بتكذيب آيات ربهم والاستهزاء بها بدلا من الإيمان بها والاهتداء بهديها .

والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد غيره على حد المثل : إياك أعنى واسمعى يا جارة : وهو كثير في كلام العرب ، أو للرسول صلى الله عليه وسلم بالذات ولغيره بالتبع كما هو الشأن في أحكام التشريع غير الخاصة به صلى الله عليه وسلم .
ووقع النسيان من الأنبياء بغير وسوسة من الشيطان لا خلاف في جوازه قال تعالى لخاتم أنبيائه : « وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ » وثبت وقوعه من موسى عليه السلام : « قَالَ لَا تَأْخِذْ بِي مَا نَسِيتُ » ولكن الله عصمهم من نسيان شيء مما أمرهم بتبليغه أو بإخلال بالدين كإضاعة فريضة أو تحريم حلال أو تحليل حرام .
وثبت في الصحيحين والسنن « أن النبي صلى الله عليه وسلم سها في الصلاة وقال : إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون ، فإذا نسيت فذكروني » .

وإنشاء الشيطان للإنسان بعض الأمور ليس من قبيل التصرف والسلطان حتى يدخل في مفهوم قوله : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » .

ومن هذا تعلم أن نسيان الشيء الحسن الذي يسند إلى الشيطان لكونه ضارا أو مفوتا لبعض المنافع أو لكونه حصل بوسوسته ولو يشغل القلب ببعض المباحات لا يعد من سلطان الشيطان على الناس واستخواذه عليهم بالإغواء والإضلال الذي نهاه الله عن عباده المخلصين .

(وما على الذين يتقونه من حسابهم من شيء) أى وما على الذين يتقون من حساب الخائضين فى آياته شيء فلا يحاسبون على خوضهم فيها ولا على غيره من أعمالهم التى يحاسبهم الله تعالى عليها إذا هم تجنّبوا وأعرضوا عنهم كما أمروا .

(ولكن ذكرى لعلمهم يتقون) أى ولكن يعرضوا عنهم ذكرى لأمر الله ،
لعلمهم يتقون فيتجنبوا الخوض حياءً أو كراهة لمساءتهم .

(وذو الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة الدنيا) أى ودع أيها الرسول
ومن تبعك من المؤمنين هؤلاء المشركين الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وغرتهم الحياة
الدنيا الفاتنة فأثروها على الحياة الباقية ، واشتغلوا بلذاتها الحقةرة الفانية المشوبة
بالمغصبات ، مما جاءهم من الحق مؤيداً بالحجج والآيات ، فاستبدلوا الخوض فيها بما
كان يجب من فقها وتدبرها .

ونحو الآية قوله تعالى : « ذَرَّهُمْ يَا كُلُّوا وَيَمْتَعُوا وَيَنْهَهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ » . واتخاذهم دينهم هزواً ولعباً ، أنهم لما عملوا ما لا يركى نفوسهم ولا يطور
قلوبهم ولا يهذب أخلاقهم ولا يقع على وجه يرضى الله سبحانه ولا يُعد للقاءه في دار
الكرامة ، أضاعوا الوقت فيما لا يفيد وهذا هو اللعب ، أو شغلوا عن شئونهم
وهوهمهم الأخرى وهذا هو اللهو .

وخلاصة المعنى — أعرض عنهم ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تقم لعلمهم
في نظرك وزنا .

(وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت) الضمير في قوله « به » يعود إلى القرآن
المعلوم بقرينة الحال ، لأنه هو الذكر الذى بعث به الرسول المذكر : أى وذكر الناس
وعظهم بالقرآن اتقاء أن تبسل كل نفس في الآخرة بما كسبت أى اتقاء حبسها
أو رهنها في العذاب ، وتفادياً من ذلك بما بينه الذكر الحكيم من أسباب النجاة
والسعادة في هذه الدار كما قال : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا الْأَصْحَابَ الْيَمِينِ » .

(ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع) أى والحال أنه ليس لها من غير الله
ولى ولا ناصر ينصرها ولا شفيع يشفع لها عند الله كما قال : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَاجِمٍ
وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعِ » وقال : « قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا » وقال : « وَلَا يَشْفَعُونَ
إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ ، وَهُمْ مِنْ خَشِيئَتِهِ مُسْقِطُونَ » .

(وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) أى وإن تغد النفس المبسلة كل نوع من أنواع القداء لا يؤخذ منها ولا يقبل ، والمراد أنه لا يقع الأخذ ولا يحصل ، وهذا كقوله فى سورة البقرة : « وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ، وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ » .

والخلاصة — إن النفس المبسلة تمتنع فى ذلك اليوم من أى وسيلة من وسائل النجاة ، فلا ولى ولا حيم ولا شفيع ولا فداء إلى نحو أولئك مما ر بما نفع فى مقاصد الدنيا وأنجز بعض المنافع .

وفى هذا إبطال لأصل من أصول الوثنية وهو رجاء النجاة فى الآخرة كما هو الحال فى الدنيا بتقديم الفدية لله تعالى أو بشفاعة الشافعين ووساطة الوسطاء عنده تعالى ، وتقرير لأصل دينى وهو أن لانجاة فى الآخرة ولا رضوان من الله ولا قرب منه إلا بالعمل بما شرعه على السنة رسله من إيمان به وعمل صالح يركى النفس . ويظهرها ، أما من دسى نفسه وأبسله كسبه للسيئات والخطايا واتخذ دين الله هزواً ولعباً وغرته الحياة الدنيا فلا تنفعه شفاعته ولا تقبل منه فدية .

(أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا) أى أولئك المتخذون دينهم هزواً ولعباً للغفرون بالحياة الدنيا ، هم الذين حرموا الثواب وأسلموا للعذاب وحسبوا عن دار السعادة ، بسبب ما كسبوا من الأوزار والآثام حتى أحاطت بهم خطاياهم ، ولم يكن لهم من دينهم الذى اتخذه زاجر ولا مانع يرشدهم إلى التحول عن تلك الأعمال القبيحة ويصدهم عن العقائد الزائفة .

ثم بين سبحانه ما يكون لهم من الجزاء حين أبسلوا فقال :

(لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) أى لهم شراب من ماء حميم : أى بالغ الغاية فى الشدة يتردد فى بطونهم وتقطع به أمعاؤهم ، وعذاب شديد الألم بنار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم الذى ظلوا عليه طول حياتهم حتى صبرقوا عما جعل وسيلة للنجاة لو اتبعوه .

والخلاصة — إن رسوخهم في الكفر أفسد فطرتهم حتى لم يبق فيهم استعداد للحق والخير، وفي ذلك عبرة لمن يفقه القرآن ولا يعتر بلقب الإسلام، ويعلم أن المسلم من اتخذ القرآن إمامه وسنة الرسول طريقه، لا من اغتر بالأمانى والأوهام، ولا من ركن إلى شفاعة الشافعين والأولياء والناصرين .

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا
بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا ، لَهُ
أَصْحَابٌ يَدْعُوهُ إِلَى الْهُدَىٰ اثْنَانَا ، قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ ، وَأَمَّا إِنَّا
لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْهُ ، وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ، وَيَوْمَ يَقُولُ
كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ ، يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ، عَالِمُ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣) .

شرح المفردات

الأعقاب : واحدها عقب : وهو مؤخر الرجل ، وتقول العرب فيمن عجز بعد قدرة أو سفل بعد رفعة أو أحجم بعد إقدام على محمده : نكص على عقبيه وأرعد على عقبيه ورجع القهقري ، ثم صار يطلق على كل تحول مذموم ، واستهوته الشياطين : ذهبت بعقله وهواه ، وكانت العرب في الجاهلية تزعم أن الجنون كله من تأثير الجن ، ومنه قولهم : جن فلان ، أى مسته الجن فذهبت بعقله ، وكانوا يقولون إن الجن تظهر لهم في المنام وتتلون لهم بألوان مختلفة فتذهب بلب من يراها فيهم على وجه لا يدري أين يذهب حتى يهلك ، وهذه الشياطين التي تتلون هي التي يسمونها الغيلان والأغوال والسعالى

وقوله حيران : أى تأمها ضالاً عن الجادة لا يدري ما يصنع ، والصور فى اللغة : القرن وقد ثقب الناس قرون الوعول والظباء وغيرها فجعلوا منها أبواقاً ينفخون فيها لها صوت شديد يدعى به الناس إلى الاجتماع ويعزفون بها كغيرها من آلات الطرب ، وقد جاء فى سفر الأيام الأول من كتب العهد العتيق : فكان جميع بنى إسرائيل يصعدون تابوت عهد الرب بهتاف وبصوت الأصوات والأبواق والصنوج ويصوتون بالرباب والعيذان .

الإيضاح

(قل أئذعوا من دون الله مالا ينبغنا ولا يضرنا ونزد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ؟) أى قل أيها الرسول للآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم ، أئذعوا من دون الله حجراً أو شجراً لا يقدر على نفعنا أو ضررنا فنخصه بالعبادة دون الله ونذع عبادة الذى بيده الضر والنفع والحياة والموت إن كنتم تعقلون فتميزون بين الخير والشر ؟ ولا شك أن خدمة ما يرتجى نفعه ويرهب ضره أحق وأولى من خدمة من لا يرجى منه شيء منهما ، ونزد على أعقابنا بالعودة إلى الضلال والشرك بعد إذ هدانا الله إلى الإسلام .

والخلاصة — إن ذلك لا ينبغى ولا يكون للأسباب الآتية :

(١) إن هذا تحول وارتداد عن دعاء القادر الذى يكشف الضر إن شاء ويمنح

الخير إن شاء — إلى دعاء العاجز الذى لا يقدر على نفع ولا ضرر .

(٢) إنه تكوص على الأعقاب وتقهقر إلى الوراء .

(٣) إن من أنقذه الله القدير الرحيم من الضلالة بما أراه من آياته فى الأنفس والآفاق

لا يقدر أحد أن يضلّه «وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ»

(كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه إلى الهدى

ائتنا) أى أنزد على أعقابنا فيكون مثلنا فى ذلك مثل الرجل الذى استتبعه الشيطان

يهوى فى الأرض حيران تأمها ، له أصحاب على المحجة واستقامة السبيل يدعونه إلى طريق الهدى الذى هم عليه ويقولون له اثتنا.

وخالصة المثل — إن من یرتد مشركا بعد الإيمان كمن جعله العشق أو الجنون هاتما على وجهه ضالا فى الفلوات حيران لا يهتدى ، تاركا رفاقه على الطريق المستقيم ينادونه : عد إلينا فلا يستجيب لهم لانجذابه وراء ما تراءى له بغير عقل ولا بصيرة . قال صاحب الكشاف وهذا مبنى على ما كانت تزعمه العرب وتعتقده من أن الجن تستهوى الإنسان والغيلان تستولى عليه كقوله : « كَمَا يَقَوْمُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ » .

(قل إن هدى الله هو الهدى) أى قل إن هدى الله الذى أنزل به آياته وأقام عليه حججه وبياناته هو الهدى الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا ماتدعون إليه من أهوائكم اتباعا لما ألقىتم عليه آباءكم .

(وأمرنا لنسلم لرب العالمين) أى وأمرنا بأن نسلم لله رب العالمين فأسلمنا .
(وأن أقيموا الصلاة واتقوه) أى وأمرنا بالإسلام وبإقامة الصلاة والتقوى ، وإقامة الصلاة : الإتيان بها على الوجه الذى شرعت لأجله ، وهى أن تزكى النفس بمناجاة الله وذكره وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، والتقوى : انقاء ما يترتب على مخالفة دين الله وشرعه وتنكب سننه فى خلقه من ضرر وفساد .

(وهو الذى إليه تحشرون) أى وهو الذى تجمعون وتساقون إلى لقاءه يوم القيامة دون غيره فيحاسبكم على أعمالكم ويمجازيكم عليها ، فليس من العقل ولا من الحكمة أن يعبد غيره أو يخاف ويرجى .

(وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق) أى وهو الذى خلقهما خلقا متلبسا بالحق ، وهو أنه وفق سننه المطردة المشتملة على الحكم البالغة الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته البالغة ، ولم يخلقهما باطلا ولا عبثا فهو لا يترك الناس سدى ،

بل يحزى كل نفس بما كسبت ، ونحو الآية قوله في سورة آل عمران : « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا » وقوله : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَآعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهَا إِلَّا بِالْحَقِّ » .

(ويوم يقول كن فيكون ، قوله الحق) أى وقوله هو الحق الذى لا شك فيه يوم يقول للشئ كن فيكون وهو وقت إيجاد العالم وتكوينه ، فلا مرد لأمره ولا تخلف لمقتضاه وحكمه ، ومن كان أمره التكويني مطاعا يكن أمره التكليفي كذلك واجب الطاعة بلا حرج فى النفس ولا ضيق منه ، فالخلق حق والأمر حق : « أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ » .

(وله الملك يوم ينفخ فى الصور) أى وله الملك يوم الحشر يوم يبعث من فى القبور وينفخ فى الصور ، والأمر حينئذ لله وحده ، ولا تملك نفس انفس شيئا من خير أو شر أو نفع أو ضرر ، فكيف يرضى لنفسه من يعرف هذه الحقائق - أن يدعو سواء ويتخذ له إلها غير الله ويرد إلى عقبيه ويرجع إلى أسوأ حاله؟ .

روى عن عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الصور فقال : « هو قرن ينفخ فيه » وروى عن ابن مسعود أنه قال : « الصور كهيئة القرن ينفخ فيه » (عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير) قال الحسن : الشهادة ما قد رأيتم خلقه ، والغيب ما غاب عنكم مما لم تروه ، وقال ابن عباس : الغيب والشهادة السر والعانية .

والمعنى - إن الذى خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق ، والذى قوله الحق تكويننا وتكليفنا ، والذى له الملك وحده يوم يحشر الخلائق - هو عالم الغيب والشهادة ، وهو الحكيم الذى يضع الأشياء مواضعها ، وهو الخبير بدقائقها وخفاياها ، ولا يشذ عن علمه شئ منها ، فلا ينبغي لعاقل أن يدعو غيره معه كما قال : « فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا » وقال : « بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرْتَنِخِذُ أَصْنَامًا آلهَةً؟ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ
 فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَا كُنْتِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا
 قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ
 بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي ، فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ
 الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً ، قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ، فَلَمَّا
 أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي
 فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) .

شرح المفردات

إبراهيم اسم خليل الرحمن أبي الأنبياء الأكبر من بعد نوح ، وهو العاشر من
 أولاد سام كما في سفر التكوين ، ولد في بلدة (أور) أي النور من بلاد الكلدان ،
 وهي المعروفة الآن باسم (أورفا) في ولاية حلب كما يرجح ذلك بعض المؤرخين .
 وفي سفر التكوين - إن الله تعالى ظهر له في سن التاسعة والتسعين من عمره
 وكله وجدد عهده له بأن يكثر نسله ويعطيه أرض كنعان (فلسطين) ملكاله وسماه
 لذريته اه .

ومعنى إبراهيم أبو الجهور العظيم: أي أبو الأمة وهو تبشير من الله له بتكثير نسله
 من ولديه إسماعيل وإسحاق عليهما السلام .

وقد أثبت علماء الآثار أن عرب الجزيرة استعمروا منذ فجر التاريخ بلاد
 الكلدان ومصر وغلبت لغتهم فيهما .

ونقل بعض المؤرخين أن الملك جمورابي الذي كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام عربي .

وقد أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل مع أمه هاجر المصرية في الوادي الذي بنيت فيه مكة وأن الله سخر لهما جماعة من جرم سكنوا معهما هناك .

وأبو إبراهيم سماه الله آزر ، وفي سفر التكوين اسمه تارح ، ومعناه متكاسل ، وقال البخارى فى تاريخه إبراهيم بن آزر وهو فى التوراة تارح والله سماه آزر اه .

وجزم الضحاك وابن جرير أن اسمه آزر ، والضلال: العدول عن الطريق الموصل إلى الغاية التى يطلبها العاقل من سيره الحسى والمعنوى ، وملك الله وماكوته : سلطانه وعظمته ، وجنه الليل وأجنه ستره ، والكوكب والكوكبة : واحد الكواكب ، وهى النجوم ، ربى أى مولاي ومدبر أمرى ، الأقول : غيبوبة الشئ بعد ظهوره ، وبزوغ القمر ابتداء طلوعه ، وتوجيه الوجه لله تعالى تركه يتوجه إليه وحده فى طلب حاجته وإخلاص عبوديته ، وفطر السموات والأرض : أخرجهما إلى الوجود ، والحنيف : المائل عن الضلال .

الإيضاح

(وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؟) أى واذا ذكر أيها الرسول هؤلاء المشركين الذين لتفانك فيما سبق الحجج على بطلان شركهم وضلالهم إذ عبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم - قصص جدم إبراهيم الذى يبجلونه ويدعون اتباع ملته حين جادل قومه وراجعهم فى باطل ما كانوا يعملون ، إذ قال لأبيه آزر منكراً عليه وعلى قومه شركهم وعائباً عليه عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه ، يا آزر أتتخذ أصناماً آلهة تعبدوها من دون الله الذى خلقك وخلقها ؟ فهو المستحق للعبادة دونها .

(إني أراك وقومك فى ضلال مبين) أى إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام مثلك ، فى ضلال عن الصراط المستقيم ، مبين لاشبهه فيه للهدى ،

فإن هذه الأصنام تماثيل تنحتونها من الحجارة أو تقطعونها من الخشب ، أو تصنعونها من المعادن ، فأنتم أرفع منها قدرا وأعز جانبا ، ولم تكن آلهة بذاتها بل بالتخاذكم إياها ولا يليق بالعاقل أن يعبد ما هو مساو له في الخلق . ولا ما هو مقهور بتصرف الخالق فيه ومحتاج إلى الغنى القادر ولا يقدر على نفع ولا ضر ولا إعطاء ولا منع .

والتعبير بالضلال البين بيان لما حدث منهم بما تدل عليه اللغة كقوله تعالى نلخاتم أنبيائه : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » وقولك لمن تراه منحرفا عن الطريق الذى يسلكه : إن الطريق من هنا فأنت حائد أو ضال عنه .

وقد دلت آثار الكشف الحديث فى العراق على صدق ما عرف فى التاريخ من عبادة أولئك القوم للأصنام الكثيرة حتى كان لكل منهم صنم للعبادة خاص به ، سواء فى ذلك الملوك والسوقة ، وكانوا يعبدون الفلك والنيرات من الكواكب عامة والدرارى السبع خاصة .

(وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) أى وكما أرينا إبراهيم الحق فى أمرأبيه وقومه وهو أنهم كانوا فى ضلال مبين فى عبادتهم الأصنام والأوثان . كذلك أريناه مرة بعد مرة ملكوت السموات والأرض : أى خلقتهما بما فيهما من بديع النظام وغريب الصنع فأريناه تلك الكواكب التى تدور فى أفلاكها على وضع لا تعدوه ، وأريناه الأرض وما فى طبقاتها المختلفة من أصناف المعادن النافعة للإنسان فى معاشه إذا هو استخدمها على الوجه الصحيح الذى أرشدناه إليه ، وجلبنا له بواطن أمورها وظواهرها ، وهنذه إلى وجوه الحججة فيها مما يدل على وحدانيته تعالى وعظيم قدرته وإحاطة علمه بكل شىء .

(وليكون من الموقنين) أى نريه ذلك ليعرف سنننا فى خلقنا وحكمنا فى تدبير ملكنا وآياتنا الدالة على ربوبيتنا ، ليقم بها الحججة على المشركين الضالين ، وليكون فى خاصة نفسه من زمرة الراسخين فى الإيقان البالغين عين اليقين .

ثم فصل سبحانه ما أجمله من رؤية ملكوت السموات والأرض فقال :

(فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا) أى إنه تعالى لما بدأ يريه ملكوت السموات والأرض ، كان من أول أمره فى ذلك أنه لما أظلم عليه الليل وستر عنه ما حوله من عالم الأرض نظر فى ملكوت السموات فرأى كوكبا عظيما ممتازا عن سائر الكواكب بإشراقه وبريقه ولمعانه ، وهو : (كوكب المشتري) الذى هو أعظم آلهة بعض عباد الكواكب من قدماء اليونان والرومان ، وكان قوم إبراهيم يؤمنون فى هذه العبادة وهم لهم مقتدون - فلما رآه .

(قال هذا ربى) أى قال هذا فى مقام المناظرة والحجاج لقومه تمهيدا للانكار عليهم ، فحكى مقاتلتهم أولا ليستدرجهم إلى سماع حجته على بطلانها ، فأوهمهم أولا أنه موافق لهم على زعمهم ثم كر عليه بالنقض بانبا دليله على الحس والعقل .

(فلما أفل قال لا أحب الآفلين) أى فلما غرب هذا الكوكب واحتجب قال لا أحب ما يغيب ويحتجب ، إذ من كان سليم الفطرة لا يختار لنفسه حب شئ يغيب عنه ويوحشه فقدته ، فما بالك بحب العبادة الذى هو أعلى أنواع الحب وأكمله ، لأنه قد هدت إليه الفطرة وأرشد إليه العقل السليم ، فلا ينبغي أن يكون إلا للرب الحاضر القريب السميع البصير الرقيب الذى لا يغيب ولا يغفل ولا ينسى ولا يذهل ، الظاهر فى كل شئ بآياته :

وفى كل شئ له آية تدل على أنه الواحد

والباطن فى كل شئ بحكمته ولطفه الخفى : « لا تُدرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » وقد جاء فى الحديث فى وصف الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والخلاصة - إن فى هذا تعريضا بجهل قومه فى عبادة الكواكب إذ يعبدون ما يحتجب عنهم ولا يدركون شيئا من أمر عبادتهم وهذا قريب من قوله لأبيه : « لَمْ تَعْبُدُوا مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا » .

وقد احتج إبراهيم بالأقول دون البرزوخ وكلاهما انتقال من حال إلى حال ، لأن الأقول انتقال مع خفاء واحتجاب وهو مما ينافى الربوبية .

(فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى) أى فلما رأى القمر طالعا من وراء الأفق أول طلوعه قال هذا ربى على طريق الحكاية لما كانوا يقولون تمهيدا لإبطاله كما علمت فيا سلف .

والتبادر من سياق الكلام أن إبراهيم رأى الكوكب فى ليلة ورأى القمر فى الليلة التالية .

(فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين) أى فلما أفل القمر كما أفل الكوكب وهو أكبر منه منظرا وأسطع نورا وأقوى منه ضياء قال مسمعا من حوله من قومه : لئن لم يهدنى ربى ويوقنى لإصابة الحق فى توحيده لأكونن من القوم الضالين الذين أخطئوا الحق فى ذلك فلم يسيبوا الهدى وعبدوا غير الله واتبعوا أهواءهم ولم يعملوا بما يرضيه سبحانه .

وفى هذا تعريض يقرب من التصريح بضلال قومه ، وإرشاد إلى توقف هداية الدين على الوحي الإلهى ، وقد ترقى فى هذا التعريض لأن الخصوم قامت عليهم الحجة بالاستدلال الأول فأنسوا بالتدح فى معتددهم فاعرض صلوات الله عليه بضلالهم إلا بعد أن وثق بإصغائهم إلى إتمام المقصود واستماعه إلى آخره ، وقد انتقل فى المرة الثالثة من التعريض إلى التصريح بالبراءة منهم والتصريح بأنهم على شرك بين بعد أن تبلج الحق وظهر غاية الظهور ، وذلك قوله :

(فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى) أى قال مشيرا إليها : هذا الذى أرى الآن هو ربى .

(هذا أكبر) أى من الكوكب والقمر ، وفى هذا مبالغة فى المجازة لهم وتمهيد لإقامة الحجة عليهم واستدراج لهم إلى التمدادى فى الاستماع بعد ذلك التعريض الذى كان يخشى أن يصددهم عنه .

وإخلاصة — إن هذا الطالع أكبر من الكواكب والقمر قدرا وأعظم ضياء ونورا فهو أجدر منهما بالربوبية .

(فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون) أى فلما أفلت كما أفلت غيرها واحتجب ضوء المشرق وكانت الوحشة بذلك أشد من الوحشة باحتجاب الكواكب والقمر صرّح بما أراد بعد ذلك التعريض الذى تقدم متبرئاً من شرك قومه وتنحى عنه لقبحه بعد أن جازاهم عليه أولاً استمالة لهم وإصغاء إلى ما يقول .

وإخلاصة — إنه حاور وداور وتلطف فى القول وأرخى لخصمه العنان حتى وصل إلى ما أراد بالطف وجهه وأحسن طريق متبرئاً من تلك المعبودات التى جعلوها أرباباً وآلهة مع الله .

وبعد أن تبرأ من شركهم قفى تلك البراءة ببيان عقيدته عقيدة التوحيد الخالص فقال :

(إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) أى إني جعلت توجهى فى عبادتى لمن خلق السموات والأرض وأكمل خلقهن أطواراً فى ستة أيام ، فهو خالق هذه الكواكب النيرات وخالقكم وما تصنعون منه هذه الأصنام من معدن ونبات .

وفى معنى الآية قوله : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » وقوله : « وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » وإسلام الوجه له تعالى توجه القلب ، وعبر عنه به لأن الوجه أعظم مظهر لما فى النفس من الإقبال أو الإعراض والسرور أو السكابة إلى نحو أولئك . وتوجيهه له جملة يتوجه إليه وحده ، فى طلب حاجته وإخلاص عبوديته إذ هو المستحق للعبادة القادر على الأجر والثواب .

وإخلاصة — إن إبراهيم تبرأ أولاً من شركهم أو شركائهم ثم تبرأ منهم أنفسهم . ونحو الآية قوله تعالى : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » .

روى ابن جرير عن ابن زيد أن قوم إبراهيم قالوا حين قال إني وجهت وجهي
للذي فطر السموات والأرض : ما جئت بشيء ونحن نعبده وتتوجه إليه فرد عليهم
بأنه حنيف أى مخلص له لا يشرك به كما يشركون اه .

يريد أنه ماثل عن معبوداتهم الباطلة وعن غيرها ، فتوجهه وإسلامه خالص
ولا يشوبه شرك ولا رياء ، وما هو من المشركين به الذين يتوجهون إلى غيره من
المخلوقات كالسكواكب أو الملائكة أو الملوك أو الصالحين أو ما يتخذ لهم من
الأصنام والتمائيل .

وظاهر ما حكاه الله عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم أن قومه كانوا يتخذون
الأصنام آلهة لأربابا ويتخذون السكواكب أربابا آلهة ، والإله هو المعبود وكل من
عبد شيئا فقد اتخذها إله ، والرب : هو السيد المالك الربى المدير المتصرف ، وليس
للخلق رب ولا إله إلا الله الذى خلقهم ، فهو المالك لكل شيء وفى كل زمن وعلى كل
حال ، ومملك غيره ناقص موقوت فهو المعبود بحق ، والعبادة : هى التوجه بالدعاء والتعظيم
القولى أو العملى إلى ذى السلطان الأعلى خالق الخلق والموجد له والمتصرف فيه .

والأصل فى اختراع عبادة غير الله من حجر أو شجر أو شمس أو قرأمران :
(١) إن بعض ضعاف الأحلام رأوا بعض مظاهر قدرته تعالى فى بعض خلقه ،
فتوهوا أن ذلك ذاتى لهذا المخلوق ليس خاضعا لسنن الله فى الأسباب والمسببات .

(٢) اتخاذ بعض المخلوقات ذات الخصوصية فى مظاهر النفع والضرر وسيلة إلى
الإله الحق تشفع عنده وتقرب إليه كل من توجه إليها ، فيتوسل ذو الحاجة إليها
باعتبارها وتعظيمها بالقول أو الفعل لئله تعالى بتأثيرها على قبوله وإعطائه سؤله .

وقد أقاموا مقام هذه المخلوقات : التمائيل والأصنام والقبور وغيرها مما يذكرها ،
وهذه هى الوثنية الراقية التى كانت عليها العرب زمن البعثة ، ومن ثم كانوا يقولون
فى طوافهم بالبيت الحرام : لبيك لا شريك لك ، لإشريكها هولاك ، تملكه وماملت .
وكان قوم إبراهيم صلى الله عليه وسلم قد ارتقوا فى وثنتهم إلى هذه المرتبة

إذ أنهم عقّلوا أن الأصنام لا تسمع دعاءهم ولا تبصر عبادتهم ولا تقدر على نفعهم
 وضرهم ، وإنما قلّدوا فيها آباءهم كما سيأتي في حججهم في سورة الشعراء ، ومن ثم اتخذوا
 الأصنام آلهة معبودين لا أرباباً مديرين ، لكنهم اتخذوا الكواكب أرباباً لما لها من
 التأثير السببي في الأرض ، فكانوا يعتقدون أن الشمس رب الناس والقمر يدبر
 الملوك ويفيض عليهم روح الشجاعة والإقدام وينصر جندهم ويخذل عدوهم ،
 ويعتقدون أن (مرداخ) وهو المشتري شيخ الأرباب ورب العدل والأحكام وحافظ
 الأبواب التي يدخلها الخصوم لفصل الخسومات ، وأن (رنكال) وهو الريح رب
 الصيد وسلطان الحرب ، وأن (عشتار) وهي الزهرة ربة الغبطة والسرور والسعادة
 وتمثل بصورة امرأة عارية ، وأن (نيو) وهو عطار رب العلم والحكمة .

وجاء إبراهيم بحجته البالغة فحصر العبادة في فاطر السموات والأرض وحده
 دون غيره من الوسائل فقال في تماثيلهم : « بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ » .

وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ، وَلَا أَخَافُ
 مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ، وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ، أَفَلَا
 تَتَذَكَّرُونَ ؟! (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ
 أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ؟ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ
 بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ
 أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ
 عَلَىٰ قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءَ ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) .

شرح المفردات

الحاجة : المجادلة والغالبية في إقامة الحجة ، والحجة تطلق تارة على الدلالة المبيّنة المقصد ، وتارة على ما يدلى به أحد الخصمين في إثبات دعواه أو رد دعوى خصمه ، وهى بهذا الاعتبار تنقسم إلى حجة دامغة يثبت بها الحق ، وإلى حجة داحضة يموه بها الباطل ، وقد اصطاحوا على تسمية مثل هذه شبهة ، والسلطان : الحجة والبرهان ، لم يلبسوا : لم يخطوا ، والظلم هنا هو الشرك فى العقيدة أو العبادة . كاتخاذ ولى من دون الله يدعى معه أو من دونه .

الإيضاح

(وحاجه قومه) أى وجادله قومه فى أمر التوحيد ، فهو حين أبان لهم بطلان عبادة الأصنام وزبوية الكواكب ، وأثبت لهم وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته وحده ، حاجوه ببيان أوهامهم فى شركهم إذ قالوا إن اتخاذ الآلهة لا ينافى الإيمان بالله الفاطر للسموات والأرض لأنهم شفعاء عنده ، ولما لم يجد ذلك معه خوفه أن تمسه آهتهم بسوء ، وانتهت بهم خاتمة المطاف أن قالوا إنهم ساروا على ما وجدوا عليه آباءهم ، وليس المقلد أن يحتج ولكنه يجادل ويحاج مع كونه لا يخضع للحجة إذا قامت عليه ، وكثيرا ما يضطرب المقلد لسماع الحجة إذ يومض فى قلبه نورها ثم يعود إلى سابق وهمه خائفا مما لا يخيف ، راجيا ما لا يرجى ، كما يشاهد لدى زائرى قبور الصالحين والأولياء الذين يتوهمون أن هذه القبور تدفع عن زائرها الضر وتكشف عنه سوء وتدر عليه الرزق وتكبت العدو ، إما بتصرفهم فى الخلق وإما لأنهم قرابان عند الرب ولا يرون شيئا من هذا ناقضا للإيمان الصحيح وفى مثلهم يقول الله عز اسمه « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » .

(قال أتحتاجونى فى الله وقد هدان ؟) أى أتجادلوننى فى شأن الله وما يجب

في الإيمان به ، وهو قد فضاني عليكم بما هداني إلى التوحيد الخالص وبما بصرتني به من الحججة التي أقمتها عليكم ، وأتم الضالون بإصراركم على شرككم وتقليدكم فيه من قبلكم ؟ .
(ولا أخاف ما تشركون به) أى ولا أرهيب من أهلكم التي تدعونها من دون الله سوءا ينالني في نفسى ، ذلك أنى أعتقد أنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ولا تقرب ولا تشفع .

(إلا أن يشاء ربي شيئا) أى لا أخاف ما تشركون به في وقت من الأوقات إلا وقت مشيئته تعالى إصابة مكروه لى من جهتها فانه يقع لاحتماله كما شاء ربي ، فإن شاء أن يسقط على صنم يشجنى أو كسف من شهب السكواكب يقتلنى فإن ذلك يقع بقدرة ربي ومشيئته لا بمشيئة الصنم أو السكواكب ولا بقدرته ولا بتأثيره في قدرته تعالى وإرادته ولا يجاهه عنده وشفاعته ، إذ لا تأثير لشيء من المخلوقات في مشيئة الله الجارية إلا بما يثبت في علمه الأزلى .

(وسع ربي كل شيء علما) أى أحاط بكل شيء علما ، فلا يبعد أن يكون في علمه سبحانه إنزال المكروه لى من جهتها بسبب من الأسباب ، وهذه الجملة كالعادة لقوله : إلا أن يشاء ربي شيئا .

(أفلا تتذكرون ؟) أى أتعرضون بعد ما أوضحته لكم عن التأمل في أن أهلكم ليس بيدها نفع ولا ضرر ، فلا تتذكرون أيها الغافلون أنها غير قادرة على ضرر ولا على إيصال النفع إليكم ، فالسلطة العليا له وحده ليس لغيره تأثير فيها ولا تدبير ، فإذا أعطى بعض المخلوقات شيئا من النفع أو الضرر فلا يكون ذلك داعيا لرفعها عن رتبة المخلوقات وجعلها أربابا ومعبودات .

وكان يجب أن يفظن لذلك العقلاء ويتذكروه ، لأنه تذكير بما يدركه العقل بالبرهان ويهذى إليه الوجدان .

وما يجب أن يتنبه له كثير من الذين ينتهون إلى ملة التوحيد أن هذا الضرب من الشرك الذى نعاه إبراهيم على قومه - لا يزال فاشيا بينهم فيهم يعتقدون في بعض المخلوقات

من أحياء وأموات أن لهم تصرفا غيبيا ، فما يقع عقب زيارتهم لهم من زوال مكروه أو نفع يصل إلى محبوب إنما كان بدعائهم ، والواقع أن ذلك بتقدير السميع العليم وليس لغيره في ذلك تأثير لاجلي ولا خفي .

وبعد أن أبان لهم أنه لا يخاف شركاءهم بل يخاف الله وحده ، تعجب من تخويفهم إياه ما لا يخيف وعدم خوفهم مما يجب أن يُخاف منه قال :

(وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا)
 أى وكيف أخاف ما أشركتموه بربكم من خلقه فجعلتموه ندا له ينفع ويضر -
 ولا تخافون إشراككم بالله خالقكم ما لم ينزل به حجة بينة بوحي ولا نظر عقل
 تثبت لكم جله شريكا في الخلق والتدبير أو في الوساطة والشفاعة ، فافتياتكم على خالقكم بهذه الدعوى هو الذى يجب أن يخاف ويتقى .

والخلاصة - إن ما يدعى لصحة هذا الخوف باطل ، وأنه عليه السلام لم يجد لهذا الخوف وجها فلا يخاف الشركاء لذواتهم ، ولما يزعمون من وساطتهم عند الله وشفاعتهم ، ولا لقدرة على الضر والنفع قد تدعى لهم .

وقوله ما لم ينزل به عليكم سلطانا - مذكور على طريق التيهك ، مع الإعلام بأن الدين لا يقبل إلا بالحجة والبرهان ، والتقليد ليس بعذر ولا سنيا تقليد من ليس على هداية . ولا علم ولا بصيرة ، والله لم ينزل بما ادعيتهم سلطانا لأنه باطل فلا سلطان عليه ولا دليل .

(فأى الفريقين أحق بالأمن) الفريقان فريق الموحدين الذين يعبدون الله وحده ويخافونه ويرجونه دون غيره ، وفريق المشركين الذين استكبروا وتأثير بعض الأسباب فاتخذوا ما اتخذوا من الآلهة والأرباب ونسبوا إلى بعضها النفع والضرر كالشمس والقمر والملائكة - أى فأى هذين الفريقين أحق وأجدر بالأمن على نفسه من عاقبة عقيدته وعبادته .

ونكتة التعبير (بأى الفريقين) دون أن يقول فأينا أحق بالأمن - الإشارة

إلى أن هذه المقابلة عامة لكل موحد ومشارك لخاصة به وبهم ، والبعد عن التصريح بخطئهم الذي ربما يدعو إلى اللجاج والعناد ، والاحتراس من تنفيرهم من الإصغاء إلى قوله .

(إن كنتم تعلمون) أى إن كنتم من أهل العلم والبصيرة فى هذا الأمر فأخبرونى بذلك وبينوه بالأدلة - وفى هذا إلقاء لهم إلى الاعتراف بالحق أو السكوت على الحق والجهل .

ثم بين سبحانه التحقيق بالأمن على سبيل التفصيل فقال :
 (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) المراد بالظلم الذى يلبس به الإيمان بالله ويخالطه فينقص منه أو ينقضه هو الشرك فى العقيدة أو العبادة كالتخاذولى من دون الله يدعى معه أو من دونه ، فيعظم كعتظيمه ويوجب كعبه للاعتقاد أن له نفعاً أو ضراً بذاته أو بتأثيره فى مشيئة الله وقدرته ، لا ظلم الإنسان نفسه بفعل بعض المضار أو ترك بعض المنافع عن جهل أو إهمال ، ولا ظلمه لغيره ببعض التصرفات والأحكام ، يدل على هذا التفسير ما رواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم من حديث ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الناس وقالوا يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم : إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح « يَا بَنِيَّ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » إنما هو الشرك . والمراد بالأمن الأمن من عذاب الله الذى يحل بمن لا يرضى إيمانه ولا عبادته .

أى إن الذين آمنوا بالله تعالى ولم يخلطوا إيمانهم بظلم عظيم وهو الشرك به سبحانه وتعالى ، أولئك لهم الأمن دون غيرهم من الخلود فى دار العذاب ، وهم فيما وراء ذلك بين الخوف والرجاء .

وهذا جواب من الله به فصل القضاء بين إبراهيم ومن حاجه من قومه كما اختاره ابن جرير ونقله عن ابن اسحق وابن زيد من المفسرين .

(وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) أى وتلك الحجة الدامغة التى تضمنت البيان السالف ، المثبتة للحق ، المزينة للباطل ، هى الحجة التى أرشدنا إليها إبراهيم وأعطيناها إياه ليلزم قومه ويقنعهم بها .

(نرفع درجات من نشاء) أى إنما نرفع من شئنا من عبادنا درجات بعد أن لم يكونوا على درجة منها ، فالعلم درجة كمال ، والحكمة درجة كمال ، وقوة العارضة فى الحجاج درجة كمال ، والسيادة والحكم بالحق كذلك ، والنبوة والرسالة أعلى كل هذه الدرجات لأنها تشتمل عليها وتزيد .

والله هو الذى يرفع درجات من يؤتيم ذلك بتوفيق صاحب الدرجة السكسية إلى ما به ترتقى درجته ، وإلى صرف موانع هذا الارتقاء عنه . ويؤتى ذا الدرجة الوهية (النبوة) ما لم يؤت غيره من أهل المناقب والآيات « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » .

(إن ربك حكيم عليم) أى إن ربك الذى ربك وعلمك وهداك وجعلك خاتم رسله لجميع خلقه ، حكيم فى قوله عليم بشؤونهم ، وسيريك ذلك عيانا فى سيرتك مع قومك كما أراكه بياننا فيما حدث عن إبراهيم مع قومه ، ونأس فى نفسك وقومك المكذبين بأبيك واصبر على ما ينوبك منهم كما صبر .

واعلم أن معرفة الله تعالى لا تحصل على الوجه الصحيح إلا بتعليم الوحي ، وعلم الأنبياء به ضرورى لا نظرى فقد علمهم به ما لم يكونوا يعلمون من الحجج العقلية والدلائل النقلية إلى نحو ذلك مما هدام إليه .

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ،
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنْ

الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى
 الْعَالَمِينَ (٨٦) وَمِنَ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ
 إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ،
 وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
 الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ، فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُوَ لِأَنَّ قَدْ وَكَّلْنَا بِهَا
 قَوْمًا لَيَسُوًّا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) . أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ آقَدَهُ
 قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) .

المعنى الجملى

اعلم أنه سبحانه بعد أن حكى عن إبراهيم صلوات الله عليه أنه أظهر حجة الله
 في التوحيد وعدد وجوه نعمه وإحسانه إليه ، ذكر هنا أنه جعله عزيزاً في الدنيا
 إذ جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من ذريته وأبقى هذه الكرامة له إلى
 يوم القيامة .

الإيضاح

(ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا) أى ووهبنا لإبراهيم إسحاق نبيا من
 الصالحين وجعلنا من ذريته يعقوب نبيا منجبا للأنبياء والمرسلين ، وهدينا كلا منهما
 كما هدينا إبراهيم بما آتينا من النبوة والحكمة وقوة العارضة والحجة .
 وإنما ذكر إسحاق دون إسماعيل لأنه هو الذى وهبه الله تعالى بآية منه بعد أكبر
 سنه وعم امرأته سارة جزاء إيمانه وإحسانه . وكال إسلامه وإخلاصه بعد ابتلائه

بذبح ولده إسماعيل ولم يكن له ولد سواه على كبر سنه ، ويقول المؤرخون إن معنى (إسحق) الضحاك ، وأنه ولد وكانت سن أبيه مائة واثنى عشرة سنة ، وسن أمه تسعا وتسعين سنة ، وأنه عاش ثمانين ومائة سنة .

(ونوحا هدينا من قبل) أى وهدينا جده نوحا إلى مثل ما هدينا له إبراهيم وذريته فآتيناه النبوة والحكمة وهداية الخلق إلى طريق الرشاد .

والمراد بذلك أن نسب إبراهيم من أشرف الأنساب ، إذ قد رزقه الله أولاداً مثل إسحق ويعقوب وجعل أنبياء بنى إسرائيل من نسلهما ، وأخرجه من أصلاب آباء طاهرين كنوح وإدريس وشيث ، فهو كريم الآباء شريف الأبناء .

(ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون ، وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل وإسحق ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين) .

الضمير في ذريته يعود إلى إبراهيم ، لأن الكلام في شأنه بذكر ما أنعم الله عليه من فضل ، وإنما ذكر نوحا لأنه جده فهو كما قدمنا يرشد إلى فضل الله عليه في أصوله وفروعه ، ولأن الله جعل الكتاب والنبوة في نسلهما معا كما جاء في سورة الحديد : « وَتَمَّذَّرْ سَلْمْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ » أى وهدينا من ذريته داود وسليمان الخ . وقد ذكر الله في هذه الآيات أربعة عشر نبياً لم يرتبهم على حسب أزمانهم ولا على حسب فضلهم لأن الكتاب قد أنزل ذكرى وموعظة للناس لا تاريخاً تفصل وقائمه مرتبة على حسب وجودها ، وقد التمس بعض العلماء حكمة لهذا الترتيب فقال : إن الله تعالى جعل الأنبياء ثلاثة أقسام يجمع بين كل قسم منها معنى مشترك :

(١) داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون ، وأولئك قد آتاهم الله الملك والإمارة والحكم والسيادة مع النبوة والرسالة ، فداود وسليمان كانا ملكين غنيين ، وأيوب كان أميراً غنياً محسناً ، ويوسف كان وزيراً عظيماً وحاكماً متصرفاً

ولكن هذين ابتليا بالضراء فصبرا كما ابتليا بالسراء فشكرا ، وموسى وهرون كانا حاكمين ولم يكونا ملكين ، وقد ذكروهم القرآن على طريق الترقى فى هدى الدين فأفضلهم موسى وهرون ثم أيوب ويوسف ثم داود وسليمان ، وقوله وكذلك نجزي المحسنين أى بالجمع بين نعم الدنيا والرياسة وبين هداية الدين وإرشاد الخلق :

(٢) زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، وهؤلاء كانت لهم ميزة الزهد والإعراض عن لذات الدنيا والرغبة عن زينتها وسلطانها ، ومن ثم خصهم بوصف الصالحين وإن كان كل نبي صالحاً ومحسناً .

(٣) إسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وهؤلاء لم يكن لهم من ملك الدنيا ما كان للتسم الأول ، ولا من المبالغه فى الزهد ما كان للقسم الثانى ، وقد قفى على ذكروهم بالتفضيل على العالمين الذى جعله الله لكل نبي على عالمى زمانه ، فمن كان منهم منفرداً فى قوم كان أفضلهم على الإطلاق وإن وجد نبيان أو أكثر فى قوم كانوا أفضلهم وربما كانوا متفاضلين فى أنفسهم ، فإبراهيم أفضل من لوط المعاصر له وموسى أفضل من أخيه هرون الذى كان وزيره ، وعيسى أفضل من ابن خالته يحيى صلوات الله عليهم أجمعين اه .

(ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم) أى وهدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم لا كلهم ، إذ أن بعض هؤلاء الأقر بين لم يهتد بهدى ابنه أو أبيه أو أخيه ، ألا ترى إلى أبى إبراهيم وابن نوح قال تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

(واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) يقال اجتبى فلان فلانا لنفسه إذا اختاره واصطفاه ، واجتباء الله العبد : تخصيصه إياه بفيض الهى يحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى منه كما يحدث للأنبيا والصدقيين والشهداء : أى فضلنا كلا على العالمين واخترناهم وهديناهم إلى الصراط المستقيم .

(ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده) أى ذلك الهدى الذى هديت به من سميت من الأنبياء والرسال فوقتهم به لإصابة الدين الحق الذى به رضا ربهم وشرف الدنيا وكرامة الآخرة - هو هدى الله الخاص وتوفيقه واطقه الذى يوفق به من يشاء حتى ينبى إلى طاعته ويخلص العمل له ويقر بالتوحيد ويرفض الأوثان والأصنام .

والهداية ضربان: ضرب ليس لصاحبه سعى فيه ولا هو مما ينال بالكسب وهو النبوة وهو ما أشير إليه بقوله لتنبه صلى الله عليه وسلم : « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى » . وضرب آخر ينال بالكسب والاستعداد مع اللطف الإلهى والتوفيق لنيل المراد .

ثم ختم سبحانه الآية بنفى الشرك وتقرير التوحيد فقال :

(ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) أى ولو أشرك أولئك المهديون بربهم فعبدوا معه غيره لبطل أجر أعمالهم التى يعملونها ، لأنه قد زال أفضل أعمالهم الذى هو الأساس لرفع درجاتهم ، إذ توحيد الله تعالى هو المزكى للأفئس ، فضده وهو الشرك منتهى النقص والفساد المدسى لها والمفسد لفطرتها فلا يبقى معه فائدة لعمل آخر يقرب عليه به نجاتها وفلاحها .

(أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة) المراد بالكتاب ما ذكر فى القرآن من صحف إبراهيم وموسى وزبور داود وإنجيل عيسى ، والحكم: العلم والفقه فى الدين ، وكل نبي آتاه الله العلم الصحيح والفقه فى أمور الدين وشئون الإصلاح وفهم الكتاب الذى تعبد به سواء أنزله عليه أم أنزله على غيره ، واختص بعضهم بإيتائه الحكم صبيا كيجي وعيسى أى بإعطائه ملكة الحكم الصحيح فى الأمور . وأما الحكم بمعنى القضاء والفصل فى الخصومات فلم يعطه إلا بعض الأنبياء . أى إن أولئك الأنبياء الذين ذكرت أسماءهم أوتوا الحكم والقضاء بين الناس لفصل الخصومات ، وذلك مستلزم للعلم والفقه وتكون هذه العطايا الثلاث مرتبة على

بحسب درجات الخصوصية ، فبعض النبيين أوتي الثلاث كإبراهيم وموسى وعيسى وداود ، قال تعالى حكاية عن إبراهيم : « رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا » فهو قد دعا هذا الدعاء وهو رسول عليهم بعد محاجة قومه ، وقال حكاية عن موسى : « فَوَهَّبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَمَعَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ » وقال عز اسمه : « يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ » وقال في داود وسليمان معا : « وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » .

ومنهم من أوتي الحكم والنبوة كالأنباء الذين كانوا يحكمون بالتوراة ، ومنهم من لم يوت إلا النبوة فقط .

والخلاصة — إن كل من أوتي الكتاب أوتي الحكم والنبوة ، وكل من أوتي الحكم من ذكر كان نبيا ، وما كل نبي منهم كان حاكما ولا صاحب كتاب منزل ، وهذه هي مراتب الفضل بينهم صلوات الله عليهم .

(فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) أى فإن يكفر بتلك الثلاث الكتاب والحكم والنبوة — هؤلاء المشركون من أهل مكة فقد وكلنا برعايتها ، ووقفنا للايمان بها ، وتولى نصر الداعى إليها قوما كراما ليسوا بكافرين بها ، فمنهم من آمن بها ومنهم من سيؤمن عند ما يدعى إليها .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس فى قوله : « فإن يكفر بها هؤلاء » يعنى أهل مكة ، فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين يعنى أهل المدينة والأنصار اه .

والذى عليه المعول — أن الموكلين بها هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مطلقا ، فإن المهاجرين قد كانوا أول من آمن بها وكانوا بعد الهجرة فى المقدمة فى كل عمل وجهاد ، ولكن الأنصار هم المقصودون بالذات ، لأن القوة والمنعة لم تكن إلا بهم ، ومن ثم قال : « لَيْسُوا بِكَافِرِينَ » والأنصار لم يكونوا عند نزول هذه السورة مؤمنين .

(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) الهدى ضد الضلال ، ويطلق شرعا على الطريق الموصل إلى الحق وهو الطريق المستقيم الذى نطلبه فى صلاتنا - وعلى سلوك ذلك الطريق والاستقامة فى السير عليه .

أى إن أولئك الأنبياء الثمانية عشر الذين ذكرت أسماءهم فى الآيات السالفة ، والذين وصفهم الله بإيتائهم الكتاب والحكم والنبوة - هم الذين هداهم الله هداية كاملة فبهداهم دون ما يخالفه من أعمال غيرهم ، اقتدأ بها الرسول فيما يتناوله كسبك وعملك مما بعثت به من تبليغ الدعوة وإقامة الحججة والصبر على التكذيب والجحود وإيذاء أهل العناد ومقلدى الآباء والأجداد وإعطاء كل حال حقه من مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال ، كالصبر والشكر والشجاعة والحلم والزهد والسخاء والحكم بالعدل قال تعالى : « وَكَلَّا نَقْصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فَوَّادِكَ » وقال : « وَاقْتَدَى كَذِبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَادُّوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَاقْتَدَى جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ » .

والخلاصة - إن الله تعالى أمره بالافتداء بهم فى الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة من الصبر على أذى السفهاء والنفوس عنهم - وقد كان مهتديا بهداهم كلهم فكانت مناقبه وفضائله الكسبية أعلى من مناقبهم وفضائلهم لأنه اقتدى بها كلها فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقا فيهم - إلى ما أوتيه دونهم ، ومن ثم شهد له ربه بما لم يشهد به لأحد منهم فقال « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

وكذلك فضائله الموهوبة هى فيه أظهر وأعظم ، فبعثته عامة للناس أسودهم وأحمرهم وبه ختمت النبوة والرسالة ، وكال الأشياء فى خواتمها ، صلوات الله عليهم أجمعين . (تنبيه) ذكر بعض العلماء أن الأنبياء المرسلين الذين ذكروا فى القرآن ويجب الإيمان بهم تفصيلا خمسة وعشرون هم الثمانية عشر الذين ذكرت أسماءهم فى هذه الآيات ، والسبعة الآخرون هم آدم أبو البشر وإدريس ولوط وصالح وشعيب وخاتم الجميع محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام .

وليس في القرآن نص قطعي صريح في رسالة آدم عليه السلام ، بل مفهوم قوله :
« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » أن نوحاً أول نبي
مرسل أوحى الله إليه رسالته وشرعه ، وكذلك حديث الشفاعة عن أنس بن مالك
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك
فيقولون لو استشفعنا على ربنا فأراحنا من مكاننا هذا ، فيأتون آدم فيقولون يا آدم
أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع
لنا إلى ربك حتى تريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لهم آدم لست هنا كم - ويذكر
ذنبه الذي أصابه فيستحي من ربه عز وجل - ولكن اتنوا نوحاً أول رسول بعثه
الله إلى الأرض فيأتون نوحاً ... » الخ .

والخلاصة - إن الآية تدل على أن أول رسول شرع الله على لسانه الأحكام
والحلال والحرام هو نوح عليه السلام .

ويرى بعض العلماء أن آدم كان على هدى من ربه ربي عليه أولاده
وبشرهم بالثواب وأنذرهم بالعقاب، وهذه هداية من جنس هداية الله للنبيين والمرسلين
التي بلغوها أقوامهم ولا ندري كيف هدى الله تعالى آدم إليها ، فإن طرق الهداية
متعددة ، وقد تكون هي هداية الفطرة .

ونوح ومن بعده أرسلوا إلى من فسدت فطرتهم فأعرضوا عما دعوا إليه ،
وهذه هي الرسالة الشرعية التي يسمى من جاء بها رسولا دون الأولى .

(قل لا أسألكم عليه أجرا) أى قل أيها الرسول لمن بعثت إليهم : لا أسألكم
على هذا القرآن الذي أمرت أن أدعوكم إليه وأذكركم به أجرا من مال ولا غيره من
المنافع ، كما أن جميع من قبلي من الرسل لم يسألوا أقوامهم أجرا على التبليغ والهدى
وقد تكرر هذا الأمر له صلى الله عليه وسلم في سور متعددة كقوله : « قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى » .

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى ماهو إلا تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة
إلاكم خاصة ، وفى هذا تصريح بعموم بعثته صلوات الله عليه للناس جميعا
أسودهم وأحمرهم .

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ،
قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْمَلُونَهُ
قِرَاطِيسٍ يُبَدُونَهَا وَتُخْفَوْنَ كَثِيرًا ، وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ
قُلِ اللَّهُ يُدْرِكُ ذُرِّيَّتَهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ
مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) .

شرح المفردات

قدر الشيء ، ومقداره : مقياسه الذى يعرف به ، ويقال قدره يقدره : إذا قاسه ،
والقدر والقدرة والمقدار : القوة أيضا ، والقدر : الغنى واليسار والشرف ، قراطيس :
ما يكتب فيه من ورق أوجد أو غيرها ، البركة : الزيادة والسعة ، ومبارك : بارك الله
فيه بما فضل به ما قبله من الكتب فى النظم والمعنى ، وأم القرى مكة ، وسميت بذلك
لأنها قبلة أهل القرى أو لأنهم يعظمونها كالأم ، أو لأن فيها أول بيت وضع للناس .

الإيضاح

(وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) أى ما عرفوه
حق معرفته ، فإن منكرى الوحى الذين يكفرون برسلى الله ويريدون أن يفرقوا بين
الله ورسالة ما عرفوا الله حق معرفته ولا عظموه حق تعظيمه ولا وصفوه حق صفته ،

ولا آمنوا بقدرته على إفاضة ما شاء من علمه بما يصلح به أمر الناس من الهدى والشرائع على من شاء من البشر بواسطة الملائكة أو بتكليمه إياهم بدون واسطة ، وهم قد أنكروا الوحي وجهلوا فضل البشر وقالوا ما أنزل الله على أحد منهم شيئاً .
ومن عرف حكمة الله البالغة ورحمته الواسعة وعلمه المحيط بكل شيء ونظر في آياته في الأنفس والآفاق وعلم أنه أحسن كل شيء خلقه وخلق الإنسان مستعداً للصعود إلى أعلى عليين والهبوط إلى أسفل سافلين ، وجعل كماله أثراً لعالمه وأعماله الكسبية التي عليها مدار حياته الدنيوية والأخروية — علم أن الإنسان مهما ارتقت معارفه لا يمكن أن يصل إلى الكمال الذي يؤهله لنيل السعادة الأبدية إلا إذا اهتدى بهدى النبيين والمرسلين ، فإن إرسالهم وإنزال الوحي عليهم وإرشادهم للناس سبب لكل ارتقاء إنساني في حياته الجسمية والروحية ، فبذلك تذهب الضغائن والأحقاد من القلوب ويحول الخلاف والشقاق بين الناس ويعيشون في وفاق ووثام علما منهم بأن هناك سلطة عليا ترقب أعمالهم وتحاسبهم على التقدير والتقطير في ذلك اليوم العبوس القمطير ، وتجزي كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

ثم نقن الله رسوله الرد على منكري الوحي والرسالة من مشركي قريش ، إثريان كون ذلك من شئونه تعالى ومن مقتضى نظام حياة البشر .
وقد كان أولئك المشركون يعلمون أن اليهود هم أصحاب التوراة المنزلة على موسى فقد أرسلوا إلى المدينة وفدا زعيما النصر بن الحرث وعقبة بن أبي معيط ليسألوا الأخبار عما يعلمون عن محمد وصفته لأنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عند غيرهم من علم الأنبياء ، فلما أتوا إلى أولئك الأخبار سألوهم عنه فأنكروا معرفته وبذا يكون الاحتجاج عليهم بإنزال التوراة على موسى احتجاجا ملزما لهم ودافعا لإنكارهم فقال :

(قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجملونه قراطيس

تبدونها وتحفون كثيرا) أى قل لقومك الذين لم يقدرُوا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل على بشر من شيء ، وقالوا أبعث الله بشرا رسولا ؟ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا انقشعت به ظلمات الشرك الذى ورثه بنو إسرائيل عن المصريين ، وهدى للناس الذين جاء لتبليغ رسالته إليهم فأخرجهم من الضلال إلى نور الحق وصاروا خلقا آخر اعتصم بالحق والعدل - حتى اختلفوا فيه ونسوا حظا مما ذكروا به واتبعوا أهواءهم وجعلوه قراطيس يبدونها عند الحاجة ، فإذا استفتى الخبر من أحبارهم فى مسألة له هوى فى إظهار حكم الله فيها كتب ذلك الحكم فى قرطاس وأظهره للمستفتى وخصوصه ، ويحفون كثيرا من أحكام الكتاب وأخباره إذا كان لهم هوى فى إخفائها وسبب هذا أن الكتاب كان بأيديهم ولم يكن فى أيدي العامة نسخ منه ، وهذا الإخفاء لنصوص الوقائع غير ما نسيه متقدمو اليهود من الكتاب بضياعه عند تحريب بيت المقدس وإجلاء اليهود إلى العراق وهو ما أشار إليه تعالى بقوله : « فَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » وقد أخفى أحبار اليهود حكم الرجم بالمدينة وأخفوا ما هو أعظم من ذلك وهو البشارة بالنبي صلى الله عليه وسلم وكتبان صفاته عن العامة وتحريفها إلى معان أخرى للخاصة فلئن الله رسوله أن يقرأ هذه الآية على مسع من اليهود وغيرهم بالخطاب لهم فيقول : (تجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيرا) .

(وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) قال مجاهد هذا خطاب للعرب ، وفى رواية عنه للمسلمين وما لهما واحد فإن ما علمه العرب من علوم القرآن وحكمه وهدايته قد أدوه إلى سائر المساميين من غيرهم فكانت فأئدته عامة لجميع من أظلمهم الاسلام بظله . وفى ذلك امتتان منه سبحانه على الرسول وقومه وسائر المسلمين بإتيانهم هذا الكتاب الكريم الذى بسط فيه أصول العقائد مؤيدة بالدلائل وتم به مكارم الأخلاق وأميات الفضائل ، وجعل فيه من العبادات ما يركى النفوس ويطهرها ، ومن المعاملات ما فيه المنافع للأفراد والجماعات وأوجب فيه المساواة بين الأجناس والديانات فلا يحابى مسلم لإسلامه ولا يظلم كافر بكفره .

وبعد أن بين سبحانه إنكار المنكرين للوحي بعبارة تدل على جهلهم وترشد إلى البرهان المكذب لدعواهم وشفعه بأمر الرسول أن يسألهم ذلك السؤال الذي أغمهم وأبغمهم حجراً - لقلته الجواب الذي كان يجب أن يجيبوا به لو أنصفوا وذلك قوله :
(قل الله ، ثم ذرهم في حوضهم يلعبون) أى قل لهم أيها الرسول : الله أنزله على موسى ، ثم دعهم بعد هذا البيان المؤيد بالحجة والبرهان ، فيما يخوضون فيه من باطلهم وكفرهم بآيات الله حال كونهم يلعبون كما يلعب الصبيان .

وفي أمر الرسول بالجواب عما سئلوا عنه إيماء إلى أنهم لا ينكرونه ، لما في ذلك من المكابرة وما في الاعتراف من الخزي إذا هم أقروا بما يحجدون من الحق .

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه) أى هذا القرآن كتاب عظيم القدر أنزلناه على خاتم رسلنا كما أنزلنا من قبله التوراة على موسى وقد باركنا فيه فجعلناه كثير الخير دائم البركة والمنفعة يبشر بالثواب والمغفرة ويزجر عن القبيح والمعصية ، مصدقا لما تقدمه من كتب الأنبياء في الجملة لا بكل ما يعزى إليها على وجه التفصيل ، وقد ذكر فيه بعضها بأسمائها والصحف ومضافة إلى أصحابها ونعى على بعض أهلها تحريفهم لها ونسيانهم حظا منها .

(ولتنذروا أم القرى ومن حولها) أى ولتنذروا عذاب الله وبأسه أهل مكة ومن حولهم من بلاد العالم جميعا كما روى عن ابن عباس .

وجعلت حولها لأن الناس في جميع بقاع الأرض القريبة من مكة والبعيدة منها يصلون وهم متوجهون إلى البيت الحرام فيها .

وقد ثبت عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم في آيات كثيرة كقوله تعالى في هذه السورة : « وَأُحِي إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنِ لِأَنَّ لَنَا نَذِيرَ كُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » أى وكل من بلغه ووصلت إليه هدايته ، وقوله في سورة الفرقان : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » وقوله في سورة سبأ : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » .

(والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به) أى ومن كان يؤمن بقيام الساعة والمعاد إلى الله فى الآخرة ويصدق بالثواب والعقاب فإنه يؤمن بهذا الكتاب الذى أنزلناه إليك ويقربه سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم إذا بلغتهم دعوته ، لأنهم يجدون فيه أكمل الهداية إلى السعادة العظمى فى تلك الدار ، وما مثلهم إلا مثل قوم ساروا فى الفياقى والفقار وضلوا الطريق حتى إذا كادوا يهلكون قابلهم الدليل الخريت العالم بخفاياها ، والخبير بذرعها ومعرفة مسالكها ، فأرشدهم إلى ما فيه نجاتهم وخلصهم من هلاك محقق إذا هم اتبعوا مشورته ، وسلكوا سبيله ، فقبلوا نصحه وكانوا من الفائزين .

وأما الذين ينكرون البعث والجزاء فلا حاجة لهم إلى هدايته .
وفى هذا تصريح بسبب إعراض الجبهة من أهل مكة عن هذا الكتاب الذى فيه سعادتهم ، وتنبية إلى أنهم لما يعتقدوا فى البعث والجزاء امتنعوا عن قبول هذا الدين ، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
(وهم على صلاتهم يحافظون) فيؤدونها فى أوقاتها ، ويقومون أركانها وآدابها ، وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات ، لأنها عماد الدين ، وأسس العبادات والتقوية للايمان ، وكال الإذعان ، والمحافظة عليها تدعو إلى القيام بسائر العبادات المفروضة ، وترك جميع المحرمات ، ومحاسبة النفس على لذاتها وشهواتها .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ، وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ، الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ

مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ، وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ، وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) .

شرح المفردات

الافتراء: اختلاق الكذب، وافتراء الكذب على الله: الاختلاق عليه والحكاية عنه ما لم يقله ، أو اتخاذ الأنداد والشركاء ، والغمرات : واحدها غمرة ، وهي الشدة ، واليوم : الزمن المحدود ، والمراد به هنا يوم القيامة الذي يبعث الله فيه الناس للحساب والجزاء ، والهون (بالضم) والهوان الذل ، ومنه قوله : « أَيْمِسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ » والهون (بالتفتح) اللين والرفق ، ومنه قوله : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » وفرداى : واحدهم فرد ، وخولناكم : أعطيناكم ، والترك وراء الظهر: يراد به عدم الانتفاع بالشيء ، والبين : الصلة ، والمسافة الحسية أو المعنوية الممتدة بين شيئين أو أشياء ، ويضاف إلى المثني كقوله : « فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » أو الجمع كقوله : « أَوْ إِصْلَاحُ بَيْنِ النَّاسِ » ولا يضاف إلى المفرد إلا إذا كرر نحو : « هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » وضل عنكم أى غاب عنكم .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن القرآن كتاب من عند الله ، ورد على الذين أنكروا إنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بشر ، بأن مثله مثل التوراة التي يعترفون بإنزالها على موسى وهو بشر .

ففي على ذلك بوعيد من كذب على الله وادعى النبوة والرسالة ، أو ادعى أنه قادر على الإتيان بمثل هذا القرآن ، وهذا الوعيد يتضمن الشهادة بصدق النبي صلى الله عليه وسلم .

ذاك أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر إذا لم يكن له بد من الإيمان بأن القرآن من عند الله ، ومن الاهتداء به ، فأكل الناس إيماناً بالدار الآخرة وما فيها من الجزاء هو محمد صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يعرض نفسه لمتنهي العلم الذى يستحق عليه أشد العذاب .

الإيضاح

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً) أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله كالذين قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، أو جعل لله شريكاً أو ولداً .
(أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شيء) كسيلة الكذاب الذى ادعى النبوة باليامة ، والأسود العنسى الذى ادعى النبوة باليمن ، وطليحة الأسدى الذى ادعى النبوة فى بنى أسد ، ونحوهم من كل من ادعى ذلك أو يدعيه فى أى زمان كان .
(ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) أى ومن ادعى أنه قادر على إنزال مثل ما أنزل الله على رسوله كمن قال من المشركين : «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا» فقد أثر عن النضر بن الحرث أنه كان يقول : إن القرآن أساطير الأولين ، وإنه شعر لو نشاء لقلنا مثله .

ثم ذكر تعالى وعيد الظالمين لشديد جرمهم وعظيم ذنبهم فقال :
(ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت) انخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ثم لكل من سمعه أو قرأه ، أى لو تبصر إذ يكون الظالمون - سواء منهم من ذكروا فى الآية أو غيرهم - فى غمرات الموت وهى سكراته وما يتقدمها من شدائد وآلام تحيط بها كما تحيط غمرات الماء بالغرقى - لرأيت ما لاسبيل إلى وصفه ، ولا قدرة للبيان على تجلّى كنهه وحقيقته .

(والملائكة باسطوا أيديهم) لقبض أرواحهم الخبيثة بالنعف والضرب كما قال :
« فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ » .
ثم حكى سبحانه أمر الملائكة لهم على سبيل التهمك والتوبيخ حين بسط أيديهم لقبض أرواحهم .

(أخرجوا أنفسكم) أى أخرجوا أنفسكم مما هي فيه إن استطعتم ، أو أخرجوها من أبدانكم .

قال صاحب الكشاف - هذا تمثيل لفعل الملائكة في قبض أرواح الظلمة بفعل الغريم الملحّ ينسط يده إلى من عليه الحق ليعنفه عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له : أخرج مالى عليك الساعة ، ولا أريم - لا أبرح - مكاني حتى أنزعه من أحداقك . ويرى بعضهم أنه لاداعي للعدول عن الحقيقة إلى التمثيل ، فر بما تمثل الملائكة للبشر بمثل صورهم ، وتخطابهم بمثل كلامهم فهي إذا ممكنة على الحقيقة فلا معدل عنها .

(اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) أى تقول لهم الملائكة وقت الموت : اليوم تلقون عذاب الذل والهوان جزاء ظلمكم لأنفسكم بسبب ما كنتم تقولون مفترين على الله غير الحق ، كقول بعضهم ما أنزل الله على بشر من شيء ، وقول بعض آخر : إنه أوحى إليه ولم يوح إليه شيء ، وإنكار طائفة لما وصف الله به نفسه من الصفات ، واتخاذ أقوام له البنين والبنات ، واستكبار آخرين عن الاعتراف بما أنزل الله من الآيات ، احتقار المن أكرمه الله بإظهارها على يده ولسانه .

ثم ذكر ما يقوله الله لهم يوم القيامة بعد ذكر ما تقول لهم ملائكة العذاب فقال : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) أى ولقد جئتمونا وحدانا منفردين عن الأنداد والأوثان والأهل والإخوان ، مجردين من الخدم والأملاك والأموال ، كما خلقناكم أول مرة من بطون أمهاتكم حفاة عراة غلغا ؛ ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله : « وَلَا يَكْفُرُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » لأن المراد لا يكفهم تكليم تكريم ورضا .

(وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) أى إن ما كان شاغلا لكم من المال والولد والخدم والحشم والأثاث والرياش عن الإيمان بالرسول ، والاهتداء بما جاءوا به

لم ينفعكم كما كنتم تتوهمون ، فهو لم يقن عنكم شيئا ولم يمكنكم الافئداء به أو ببعضه من عذاب الآخرة .

(وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) أى وما نبصر معكم شفعاءكم من الملائكة والصالحين من البشر ، ولا تماثيلهم وقبورهم ، وقد زعمتم فى الدنيا أنهم شركاء لله تدعونهم ليشفعوا لكم عنده ويقربوكم إليه زلفى بتأثيرهم فى إرادته وحملهم إياه على ما لم تتعلق به إرادته فى الأزل .

وفى هذه الجملة التى قبلها هدم لقاعدتين من قواعد الوثنية وهما الفداء والشفاعة . (لقد تقطع بينكم) أى لقد تقطع ما كان بينكم من صلوات النسب والملك والولاء والصدقة .

(وضل عنكم ما كنتم تزعمون) أى وغابت عنكم شفاعاة الشفعاء ، وتقريب الأولياء وأوهام الفداء ، وقد علمتم بطلان غروركم واعتمادكم على غيركم .
والمخلاصة — إن آمالكم قد خابت فى كل ما تزعمون وتتوهمون ، فلا فداء ولا شفاعة ، ولا ما يقضى عنكم من عذاب الله من شيء .

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، ذَلِكَ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ

مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ، وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ
أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا
أَمْثَرَ وَيَنْعِهِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) .

شرح المفردات

الفلق والفرق والفتق: الشق، والحب: الحنطة وغيرها مما يكون في السنبيل
والأكام، والنوى واحدها نواة: وهي ما يكون في داخل التمر والزبيب، والإصباح:
الصباح، يقال أصبح الرجل: دخل في وقت الصباح، والسكن: السكون، وما يسكن
فيه من مكان كالبيت وزمان كالليل، وما يسكن الإنسان ويطمئن إليه استثناسا به
من زوج أو حبيب، والحساب (بالكسر) والحسبان (بالضم) استعمال العدد
في الأشياء والأوقات، والمستقر: موضع القرار والإقامة كما قال: «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ
مُسْتَقَرٌّ» والمستودع: موضع الوديعة، وهي ما يتركه المرء عند غيره ليأخذه بعد، والفق:
النظر في عمق الشيء وباطنه، خضرا أى نباتا غضا أخضر، متراكبا: أى بعضه فوق
بعض، والنخل والنخيل واحدهما نخلة، والطلع: أول ما يطلع أى يظهر من زهرها
قبل أن ينشق عنه غلافه، والقنوان واحدها قنو: وهو العذق الذى يكون فيه الثمر،
وهو من النخل كالمعقود من العنب والسنبلة من القمح، ودانية: أى قريبة التناول،
مشتبها وغير متشابه: أى متشابهها في بعض الصفات وغير متشابه في بعض آخر، وينعه
أى حين ينعم ويبدو صلاحه وينضج .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه أمر التوحيد، ثم أردفه بتقرير أمر النبوة والبعث،
وذكر مسائل لها ملاسبات لهذه الأصول، عاد هنا وفصل طائفة من آيات التكوين

تدل أوضح الدلالة على وحدانيته تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ، وبيان سننه في خلقه وحكمه في الإحياء والإماتة والأحياء والأموات ، وتقديره وتديره لأمر النيرات في السموات ، وإبداعه في شئون النبات .

الإيضاح

(إن الله فائق الحب والنوى) أى إن الله فائق ما تزرعون من حب الحصيد ونوى الثمر ، وشاقه بقدرته وتقديره بربط الأسباب بمسبباتها كجعل الحب والنوى في التراب وإرواء التراب بالماء .
وفي ذلك إيحاء إلى كمال قدرته ، ولطيف صنعه ، وبديع حكمته .

(يخرج الحى من الميت) أى يخرج الزرع من نجم وشجر وهو متغذٍ نامٍ ، من الميت وهو ما لا يتغذى ولا ينمى من التراب والحب والنوى وغيرها من البذور ، ويخرج الحيوان من البيضة والنطفة .

وعلماء المواليد يزعمون أن في أصول الأحياء حياة ، فكل ما ينبت من الحب والنوى فهو ذو حياة كامنة ، إذ أنه لو عقم بالصناعة لا ينبت ، واصطلاحهم لا تسيفه اللغة ، إذ أنها لا تجعل الحى إلا الجسم النامى المتغذى بالفعل ، وهذه أقل مراتب الحياة عندهم ، ويلبها مراتب أخرى أعلاها مرتبة الإحساس والقدرة والإرادة والعلم والعقل والحكمة والنظام ، وفوق كل هذه المراتب حياة الخالق التى هى مصدر كل حياة وحكمة ونظام فى الكون .

(ويخرج الميت من الحى) كالحب والنوى من النبات والبيضة ، والنطفة من الحيوان ، قال الزجاج : يخرج النبات الغض الطرى الخضر من الحب اليابس ، ويخرج اليابس من النبات الحى النامى ، وقال ابن عباس : يخرج المؤمن من الكافر كإبراهيم من آزر ، والكافر من المؤمن كما فى ابن نوح .

قال الطيبب الثقى عبد العزيز إسماعيل باشا طيب الله ثراه : قيل فى تفسير ذلك

كإنشاء الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، ولكن النطفة حيوانات حية ، وكذلك خلق الحيوان من النطفة فهو خلق حي من حي فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير ، والله أعلم .

والتفسير الحقيقي — هو إخراج الحي من الميت كما يحصل يوميا من أن الحي ينمو بأكل أشياء ميتة ، فالصغير مثلا يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره ، والغذاء ميت ، ولا شك أن القدرة على تحويل الشيء الميت الذي يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه ، هو أهم علامة تفصل الجسم الحي من الجسم الميت وقد كتب علماء الحيوان فقالوا : إن العجوة مثلا تتغذى بالنبات وتحوله إلى لحمها ، وهذه أهم علامة تدل على أنها حية ، وكذا الطفل يتغذى باللبن الميت ويحوله إلى جسمه الحي .

وأما إخراج الميت من الحي فهو الإفرازات مثل اللبن : (وإن شئت فلقوم الحيوانات أيضا والنباتات ، فإن اللبن سائل ليس فيه شيء حى ، بخلاف النطفة فإن فيها حيوانات حية ، وهذه تخرج من الحيوان الحي ، وهكذا ينمو الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، والله أعلم بمراده اه .

(ذلکم اللہ فانی تؤفکون) أى ذلکم اللہ المتصف بكامل القدرة وبالغ الحكمة هو الله الخالق لكل شيء المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، فكيف تصرفون عن عبادته وتشركون به من لا يقدر على شيء من ذلك كفلق نواة وحبّة وإيجاد نخلة وسنبلة .

(فائق الإصباح) فلق الصبح : هو فلق ظلمة الليل وشمها بعمود الصبح الذى يبدو فى جهة مطلع الشمس من الأفق مستطيلا ، ولا يعتد به حتى تنقش الظلمة عنه من أمامه وعن جانبيه حتى تزول .

(وجعل الليل سكنا) أى جعله يستريح فيه المشب من العمل بالنهار ويسكن فيه ، والسكون يعم سكون الجسم وسكون النفس بهدوء الخواطر والأفكار .

والليل وقت السكون ، لأنه لا يتيسر فيه من الحركة وأنواع الأعمال ما يتيسر في النهار لما خص به الليل من الإظلام والنهار من الإبصار .

وأكثر الأحياء من الإنسان والحيوان تترك العمل والسعى في الليل وتأوى إلى مساكنها للراحة التي لا تتم ولا تكمل إلا بالنوم الذي تسكن فيه الجوارح والحواطر ببطان حركتها الإرادية ، كما تسكن به الأعضاء سكونا نسبيا ، فتقل نبضات القلب ، ويقل إفراز خلايا الجسم للسوائل والعصارات التي تفرزها ، ويبطئ التنفس ويقل ضغط الدم في الشرايين ، ولا سيما أول النوم ويضعف الشعور حتى يكاد يكون مفقودا ، ويستريح الجهاز العصبي لتستريح جميع الأعضاء .

(والشمس والقمر حسبانا) أى يجريان بحساب وعدد لبلوغ أمدتهما ونهاية آجالهما ، ويدوران لمصالح الخلق التي جعلها ، فطلوعهما وغروبهما وما يظهر من تحولاتهما واختلاف مظاهرها — كل ذلك يجري بحساب كما قال : « الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ » وقال : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » . وقد جمع الله في هذه الآية ثلاث آيات سماوية ، كما جمع فيما قبلها ثلاث آيات أرضية :

فالآية الأولى فلق الصبح والتذكير به للتأمل في صنع الله بإفاضة النور الذي هو مظهر جمال الوجود ، ومبدأ زمن تقلب الأحياء في القيام والعود ، ومضيقهم إلى ما يسزوا له من الأعمال ، وما لله في ذلك من حكم وأسرار .

والآية الثانية جعل الليل سكنا ، وذلك نعمة من الله ليستريح الجسم وتسكن النفس وتهدأ من تعب العمل بالنهار ، قال تعالى : « وَمَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلْ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

والآية الثالثة جعل الشمس والقمر حسبانا ، وذلك فضل من الله عظيم ، فإن حاجة الناس إلى معرفة حساب الأوقات لعباداتهم ومعاملاتهم وتواريخهم لا تخفى على أحد منهم .

وعلماء الفلك متفقون على أن للأرض حركتين ، حركة تتم في أربع وعشرين ساعة ، وعليها مدار حساب الأيام ، وحركة تتم في سنة ، وبها يكون اختلاف الفصول ، وعليها مدار حساب السنة الشمسية .

(ذلك تقدير العزيز العليم) أى وهذا الفعل العالى الشأن البعيد المدى فى الإبداع والإتيقان - هو تقدير الخالق الغالب على أمره فى تنظيم ملكه بما اقتضاه واسع علمه وعظيم قدرته وحكمته ليس فيه جفاف ولا اختلاف: «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» . ثم ذكر سبحانه آية أخرى من آيات التكوين العلوية وقرنها بذكر فائدتها فقال : (وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر) المراد بالنجوم هنا ما عدا الشمس والقمر من النيرات لأنه الظاهر من سياق الكلام ، ولأنه المعهود فى الاهتداء به .

وكانت العرب أيام بداوتها تؤقت بطلوغ النجوم فتحفظ أوقات السنة بالأبواء وهى نجوم منازل القمر فى مطالعها ومغارها . وكان اهتداؤهم بالنجوم على ضربين : (١) معرفة الوقت من الليل أو من السنة . (٢) معرفة المسالك والطرق والجهات . والمراد بالظلمات ظلمة الليل وظلمة الأرض أو الماء وظلمة الخطأ والضلال والمعنى - والله هو الذى جعل لكم النجوم أدلة فى البر والبحر إذا ضلتم الطريق أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلا ، فيها تستدلون على الطرق فتسلكونها وتتجون من الخطأ والضلال فى البر والبحر .

والخلاصة - إنه تعالى ذكرنا ببعض فضله فى تسخير هذه النيرات التى تراها صغيرة بعد أن ذكرنا ببعض فضله فى الشمس والقمر اللذين يريان كبيرين فى أعين الناس . وقد جدت فى هذا العصر المرصد الفلكية ، واستحدثت آلات التقريب الأبعاد وتحليل النور ، فعلم الشيء الكثير من سرعة الكواكب وأبعادها ، ومعرفة

مساحتها وكثافتها والمواد المؤلفة منها ، إلى نحو ذلك مما كان مجهولاً من قبل ، فثبت لعلماء الفلك أن النجوم تعد بالملايين ، لكنهم لم يتمكنوا إلى الآن إلا من معرفة أبعاد بعض مئات منها ، لأن باقيها أبعد من أن يعرف اختلاف في مواقعه .

ولما في عالم السموات من بديع الصنع ، وبديع النظام ختم سبحانه الآية بقوله : (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) والآيات هنا إما آيات التنزيل ، وإما آيات التكوين ، فإن كانت الأولى فالمعنى — إن هذه الآية وما قبلها وكل ما في معناها من الآيات المنزلة في الحث على النظر في ملكوت السموات تبين وتفصل حكم الله تعالى وعجائب صنعه ، فيزداد الإنسان بهذا البيان بحثاً وعلماً .

وإن كانت الثانية ، فالمعنى — إن الآيات الدالة على علم الله تعالى وقدرته وفضله على خلقه لا يستخرجها من النظر في النجوم إلا أهل العلم الذين يقرون العلم بالاعتبار ولا يكتفون بأن يقولوا بعد النظر والحساب : إن هذا لعجب عجاب .

وبعد أن ذكرنا سبحانه ببعض آياته في الأرض والسماء ذكرنا بآياته في أنفسنا فقال :

(وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة) الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته ، أو إحدائه بالتدرج ، والنفس تطلق على الروح وعلى الشخص المركب من روح وبدن .

والمعنى — إنه تعالى هو الذى أنشأكم من نفس واحدة هى الإنسان الأول الذى تسلسل منه سائر الناس بالتوالد ، وهو آدم عليه السلام .

وفى إنشاء جميع البشر من نفس واحدة آيات بينات على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته ، وفى التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر نعمته ، وإرشاد إلى ما يجب من التعارف والتعاون بين البشر ، وأن يكون هذا التفرق إلى شعوب وقبائل مدعاة إلى التآلف لا إلى التعادى والتقاتل وبث روح العداوة والبغضاء بين الناس .

(فستقر ومستودع) أى ولكم موضع استقرار فى الأصلاب ، وموضع استيداع فى الأرحام ، وإنما جعل الصلب مقر النطفة ، والرحم مستودعها ، لأن النطفة تتولد فى الصلب ابتداء ، والرحم شبيهة بالمستودع كما قال :

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

(قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) أى إننا جعلنا الآيات المبينة لسنننا فى الخلق مفصلة وموضحة لقدرتنا وإرادتنا وعلمنا وحكمتنا وفضلنا ورحمتنا ، لقوم يفقهون ما يتلى عليهم ، ويفهمون المراد منه ، ويفطنون لدقائقه وخفائيه .

وعبر هنا بالفقه وفيما قبلها بالعلم ، لأن استخراج الحكم من خالق البشر يتوقف على غوص فى أعماق الآيات وفطنة فى استخراج دقائق الحكم ، أما العلم بمواقع النجوم والاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر فهو من الأمور الظاهرة التى لا تتوقف على دقة النظر ، ولا غوص الفكر والتأمل فى العبرة منها ، وكذلك جميع المظاهر الفلكية . ثم ذكر بعد ذلك آية أخرى من آيات التكوين وهى إنزال الماء من السماء وجعله سببا للنبات فقال :

(وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا) أى وهو الذى أنزل من السحاب ماء فأخرجنا بسبب هذا الماء كل صنف من أصناف النبات المختلف فى شكله وخواصه وآثاره اختلافا متفاوتا فى مراتب الزيادة والتقصان كما قال : يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ .

فأخرجنا من النبات الذى لا ساق له شيئا غضا أخضر وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة كساق النجم وأغصان الشجر ، نخرج منه أى من هذا الأخضر المتشعب النبات آنا بعد أن حبا متراكبا بعضه فوق بعض وهو السنبيل .

وهذا تفصيل لنماء النجم الذى لا ساق له من النبات ونتاجه ، ثم عطف عليه حال نظيره من الشجر فقال :

(ومن النخل من طلبها قنوان دانية) أي ونخرج من طلع النخل قنوانا دانية القطف سهلة التناول .

(وجنات من أعناب) أي ونخرج من ذلك الخضر جنات من أعناب .

(والزيتون والرمان مشتها وغير متشابهه) أي وأخص من نبات كل شيء -

الزيتون والرمان حال كون الرمان مشتها في بعض الصفات ، وغير مشتها في بعض آخر ، فإنها أنواع تشبه في شكل الورق والثمر ، وتختلف في لون الثمر وطعمه ، فمنها الخلو والحامض والمز ، وكل ذلك دال على قدرة الصانع وحكمة المبدع جل شأنه .

(انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) أي انظروا نظرة استبصار واعتبار إلى ثمر

ما ذكر إذا أخرج ثمره ، وكيف يخرج ضئيلا لا يكاد ينتفع به ، وإلى ينعه ونضجه ، وكيف إنه يصير ضخما ذا نفع عظيم ولذة كاملة ، ثم وازنوا بين صفاته في كل من الخالين ، يستبين لكم لطف الله وتديره ، وحكمته في تقديره ، وغير ذلك مما يدل على وجوب توحيده .

(إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) أي إن في ذلكم الذي أمرتم بالنظر

إليه لدلائل عظيمة على وجود القادر الحكيم ووحدته ، لمن هو مؤمن بالفعل ، ولمن هو مستعد للإيمان .

أما غيرهم فإن نظرهم لا يتجاوز الظواهر ولا يمدوها إلى ما تدل عليه من وجود الخالق ووحدته التي إليها ينتهي النظام ، فهم لا يغيصون ليصلوا إلى أسرار عالم النبات ، ولا يبحثون عن أن انتقاله من حال إلى حال على ذلك النمط البديع دال على كمال الحكمة ، وعلى أن وحدة النظام في الأشياء المختلفة لا يمكن أن تصدر من إرادات متعددة .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ،
سُبْحَانَہُ وَتَعَالَى عَمَّا یَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَمَّا یَكُونُ
لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ؟ وَخَلَقَ كُلَّ شَیْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَیْءٍ

عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ
 وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ
 وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٦) .

شرح المفردات

في اللسان : خلق الكلمة واختلقها وخرقها وخرقتها : إذا ابتدئها كذبا ، وقال
 الراغب : الخرق قطع الشيء على سبيل الفساد قال تعالى : « أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا »
 والخلق : فعل الشيء بتدبير ورفق ، والبدع (بالكسر) والبديع : الشيء الذي يكون
 أولا ، ومنه البدعة في الدين ، وقال الراغب : الإبداع إنشاء صنعة بلا احتذاء واقتداء ،
 والبديع من أسمائه تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها ، والإدراك اللحاق والوصول
 إلى الشيء ، يقال تبعه حتى أدركه قال تعالى : « فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ
 مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ » والبصر حاسة الرؤية ، واللطيف من الأجرام : ضد السكثيف
 والغليظ ، واللطيف من الطباع : ضد الجافى ، واللطف في العمل : الرفق فيه .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه البراهين الدالة على توحده بالخلق والتدبير في عالم السموات
 والأرض - ذكر هنا بعض ضروب الشرك التي قال بها بعض العرب وروى التاريخ
 مثلها عن كثير من الأمم ، وهي اتخاذ شركاء لله من عالم الجن المستتر عن العيون ،
 أو اختراع نسل له من البنين والبنات .

الإيضاح

(وجعلوا لله شركاء الجن) أى وجعل هؤلاء المشركون لله سبحانه شركاء من
 الجن ، وفي المراد من الجن هنا أقوال ، فقال قتادة : إنهم للملائكة فقد عبدوهم ؛

وقال الحسن : إنهم الشياطين فقد أطاعوهم في أمور الشرك والمعاصى ، وقيل إبليس فقد عبده أقوام وسموه ربا ، ومنهم من سماه إله الشر والظلمة ، وخص البارى سبحانه بألوهية الخير والنور ، وروى عن ابن عباس أنه قال : إنها نزلت في الزنادقة الذين يقولون إن الله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والحيوان ، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشر ، ورجح الرازى هذا رأى قال : إن المراد من الزنادقة لجوس الذين قالوا إن كل خير في العالم فهو من يزدان ، وكل شر فهو من أهرمن أى إبليس .

(وخلقهم) أى والحال أنه تعالى خلق الشركاء المحمولين كما خلق غيرهم من العالمين ، فنسبة الجميع إليه واحدة ، وامتنياز بعض المخلوقين عن بعض فى صفاته وخصائصه لا يخرجهم عن كونه مخلوقا ، ولا يصل به لأن يكون إلها وربا .

(وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) أى واختلقوا له بمقتهم وجهلهم بنين وبنات بغير علم ؛ فقد سمي مشركو العرب الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصرارى المسيح ابن الله ، وقوله بغير علم أى من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ وصواب ، بل رميا بقول عن عمى وجهالة من غير فكر وروية ، ومن غير معرفة لمكانه من الشناعة والازراء بمقام الألوهية .

(سبحانه وتعالى عما يصفون) أى تنزه ربنا وتعالى عن كل نقص ينافى انفرادة بالخلق والتدبير ، إذ ليس كمثل شىء وهو السميع البصير .

(بديع السموات والأرض) أى خالقهما ومبدعهما ، فهو الخالق الخترع لاعلى مثال سابق .

(أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟) أى كيف يكون له ولد والحال أنه لم يكن له زوج ينشأ الولد من ازدواجه بها ، والولد لا يوجد إلا كذلك ، ولكن جميع الكائنات السماوية والأرضية صدرت عنه تعالى صدور إبداع وإيجاد من عدم لأصولها الأولى ، وصدور تسبب كالتوالد ونحوه على حسب سننه فى الخلق .

(وخلق كل شيء) أى خلقه خلقاً ولم يلدّه ولادة كما زعمتم ، فما افتريتم وافترعتم له من الولد ، فإنما هو مخلوق له لا مولود منه . وجاءت هذه الجملة مقررة لإنكار نفي الولد ، ودليلاً بعد دليل على ذلك .

(وهو بكل شيء عليم) أى إن علمه بكل شيء ذاتى له ، ولا يعلم كل شيء إلا الخالق لكل شيء ، ولو كان له ولد لكان هو أعلم به ، ولهدى العقول إليه بآيات الوحي ودلائل العلم ، لكنه كذب الذين افتروا عليه ذلك كذباً بلا علم مؤيد بوجوه ولا دليل عقلى .

والخلاصة — إنه تعالى نفي عن نفسه الولد بوجوه :

(١) إن من مبدعاته السموات والأرضين ، وهى نبرأة من الولادة لاستمرارها وطول مدتها .

(٢) إن العادة قد جرت بأن الولد يتوالد من ذكر وأنثى متجانسين ، والله تعالى منزّه عن المجانسة لشيء .

(٣) إن الولد كفاء للوالد ، والله لا كفاء له ، لأن كل ما عداه فهو مخلوق له لا يكافئه ، ولأن علمه ذاتى ولا كذلك غيره .

(ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه) الخطاب موجه إلى المشركين الذين أقيمت عليهم الحجة ، والإشارة إلى الله المنزه عن كل ما يصفونه به ، المتصف بما وصف به نفسه من الإبداع ، أى ذلكم الذى شأنه ما ذكر هو الله ربكم لا من خرقوا له من الأولاد وأشركوا به من الأنداد ، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، لا إله إلا هو خالق كل شيء ، وما عداه مخلوق له يجب أن يعبد خالقه ، فكيف يعبد من هو مثله ويتخذة إلهاً .

(وهو على كل شيء وكيل) أى وهو مع تلك الصفات الجليلة الشأن متول جميع الأمور ، يدير ملكه بعلمه وحكمته ، فيرزق عباده ويكلوهم بالليل والنهار سرا وعلانية .

وقد يكون المعنى — إنه تعالى رقيب على أعمالكم فيجازيكم عليها .
والخلاصة — إنه لا يحافظ إلا الله ، ولا قاضى للحاجات إلا هو ، فعلينا أن نتقطع
أطمانا عن كل ما سواه ، ولا نلجأ فى المهمات إلا إليه .

(لا تدركه الأبصار) أى لا تراه الأبصار رؤية إحاطة تعرف كنهه عز وجل ،
ونحو الآية قوله : « يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ »
ونفى إحاطة العلم لا يستلزم نفي أصل العلم ، وكذلك نفي إدراك البصر للشئء والإحاطة
به لا يستلزم نفي رؤيته مطلقا .

وبهذا يعلم أنه لا تنافى بين هذه الآية وبين الأحاديث الصحيحة الدالة على
رؤية المؤمنين لهم فى الآخرة، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنكم سترون
ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر ، وكما ترون الشمس ليس دونها سحب »
فالمؤمنون يرونه ، والكافرون عنه يومئذ محجوبون كما قال جل ثناؤه « كَلَّا إِنَّهُمْ
عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ » .

(وهو يدرك الأبصار) أى إنه تعالى يرى العيون الباصرة رؤية إدراك وإحاطة
فلا يخفى عليه من حقيقتها ولا من علمها شئء .

وقد عرف علماء التشريح تركيب العين وأجزاءها ووظيفة كل منها فى ارتسام
المرئيات فيها ، كما عرفوا كثيرا من سنن الله فى النور ووظيفته فى رسم صور الأشياء
فى العينين ، ولكنهم لم يصلوا بعد إلى معرفة كنه الرؤية ، ولا كنه قوة الإبصار
ولا إلى حقيقة النور .

قال صاحب اللسان : قال أبو إسحق فى الآية : أعلم الله أنه يدرك الأبصار ،
وفى هذا الإعلام دليل على أن خلقه لا يدركون الأبصار أى لا يعرفون حقيقة البصر
وما الشئ الذى صار به الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرها من سائر
أعضائه ، فأعلم أن خلقا من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ولا يحيطون بعلمه ،
فكيف به تعالى والأبصار لا تحيط به وهو اللطيف الخبير ؟ .

فأما ما جاء من الأخبار في الرؤية وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فغير مدفوع ، وليس في الآية دليل على دفعها ، لأن معنى هذه الآية إدراك الشيء والإحاطة بحقيقته ، وهذا مذهب أهل السنة والعلم بالحديث اه .

(وهو اللطيف الخبير) أى وهو اللطيف بذاته بحيث تخسأ الأبصار دون إدراك حقيقته ، الخبير بدقائق الأشياء ولطائفها ، فلا يعزب عن إدراكه شيء .
واختلاصة — إنه يلطف عن أن تدركه الأبصار ، ولكنه خبير بكل لطيف ، وهو يدرك الأبصار ، ولا تدركه الأبصار .

قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ
فَعَمِيهَا ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيُقُولُوا
دَرَسْتُمْ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥) اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ،
وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) .

شرح المفردات

البصائر واحدها بصيرة ، ولها عدة معان : منها عقيدة القلب ، والمعرفة الثابتة باليقين ، والمعبرة ، والشاهد المثبت للأمر ، والحجة ، والقوة التي تدرك بها الحقائق العلمية ، ويقابلها البصر الذي تدرك به الأشياء الحسية ، والمراد بها هنا الآيات الواردة في هذه السورة أو القرآن بجملة ، نصرف الآيات أى تأتي بها متواترة حالا بعد حال مفسرين لها في كل مقام بما يناسبه ، ودرس الشيء يدرس : إذا عفا وزال فهو دارس ودرسته الريح وغيرها ، ودرس اللابس الثوب درسا : أخلقه وأبلاه فهو دريس ، ودرسوا القمح : داسوه ليتكسر فيفرق بين جبه وتبته ، ودرس الناقة : راضها ، ودرس

الكتاب والعلم يدرسه درسا ودراسة ومدارسة أى ذلله بكثرة القراءة حتى خف حفظه عليه من ذلك ، والمعنى العام للدرس تكرار المعالجة ، وتتابع الفعل على الشيء حتى يذهب به أو يصل إلى الغاية منه .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة والبراهين الواضحة على توحيده وكال قدرته وعلمه - عاد هنا إلى تفريز أمر الدعوة والرسالة ، وتبليغ النبى صلى الله عليه وسلم أوامره ، ومدى تلك الأوامر من الهداية والإرشاد ، وما يقوله المشركون فى المبلغ لها ، وأعلم سبحانه سنته فيهم وفى أمثالهم ، وما يجب على الرسول معهم وما ينفى عنه .

الإيضاح

(قد جاءكم بصائر من ربكم) أى قد جاءكم فى هذه الآيات البينات بصائر من الحجج الكونية والبراهين العقلية ، تثبت لكم عقائد الحق اليقينية التى عليها مدار سعادتكم فى دنياكم وآخرتكم ، تفضل بها عليكم ربكم الذى خلقكم وسواكم ، وربى أجسادكم ، وأكمل مشاعركم وقواكم كما ربى أرواحكم ، وهذب نفوسكم ، ومحص بها عقولكم ، حتى تصل إلى منتهى ما تسمو إليه النفوس البشرية من الكمال .
(فمن أبصر فلنفسه) أى فمن أبصر بها الحق وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ، فانفسه قدم الخير وبلغ السعادة .

(ومن عمى فعليها) أى ومن عمى عن الحق وأعرض عن سبيله ، وأصر على ضلاله ، تقليدا لآبائه وأجداده ، فعلى نفسه جنى ، ونحو الآية قوله : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا » وقوله : « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » وقوله : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » .

(وما أنا عليكم بحفيظ) أى وما أنا عليكم برفيق أحصى عليكم أعمالكم ، وأفعالكم ، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم ، والله هو الحفيظ عليكم ، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، فهو يعلم ما تسرون وما تعلنون ، ويميزكم عليه بما تستحقون ، فعليه وحده الحساب ، وما على إلا البلاغ .

(وكذلك نصرف الآيات) أى ومثل ذلك التصريف البديع نصرف الآيات فى سائر القرآن لإثبات أصول الإيمان وتهذيب النفوس والأخلاق ، فنحوها من حال إلى حال ، مراعين فى ذلك تفاوت العقول والأفهام واختلاف استعداد الأفراد والجماعات .

(وليقولوا درست) أى إن تصريف الآيات على أنواع شتى ، ليهتدى بها المستعدون للإيمان على اختلاف العقول والأفهام ، وليقول الجاحدون المعاندون من المشركين قد درست من قبل وتعلمت ، وليس هذا بوحى منزل كما زعمت ، وقد قالوا هذا إفسكا وزوراً ؛ فزعموا أنه تعلم من غلام رومى كان يصنع السيوف بمكة وكان يختلف إليه كثيراً ، وذلك ما عناه سبحانه بقوله : « وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِي يَأْحِذُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ »

(ولنبينه لقوم يعملون) أى ولنبين هذا القرآن المشتمل على تصريف الآيات الذى يقول فيه الجاحدون إنه أثر درس واجتهاد لقوم لديهم الاستعداد للعلم بما تدل عليه الآيات من الحقائق ، وما يترتب على الاهتداء بها من السعادة دون أن يكون لديهم معارض من تقليد أو عناد .

والخلاصة — إن الذين يقولون للرسول : إنك درست هم الجاهلون الذين لم يفهموا تلك الآيات التى صرفها الله على ضروب مختلفة ، ولم يفقهوا سرها ، وما يجب من إشارها على منافع الدنيا .

وأما الذين يعملون مدلولاتها ، وحسن عاقبة الاهتداء بها ، فهم الذين يتبين لهم بتأملها حقيقة القرآن وما اشتمل عليه من حسن التصرف المؤيد بالحجة والبرهان .

وبعد أن بين سبحانه لرسوله أن الناس فى شأن القرآن فريقان ، فريق فسدت فطرتهم ولم يبق لديهم استمداد لهديه ، ولا للعلم بما فيه من تزييف الآيات ، ومن ثم كان نصيبهم منه الجحود والانكار ، وفريق آخر اهتدى به وعمل بما فيه - أمره أن يتبع ما أوحى إليه من ربه بالبيان له والعمل به فقال :

(اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين)
 أى اتبع ما أوحى إليك لتربى نفسك وتكون إماما لأبناء جنسك ، فإن الاقتداء لا يتم إلا بمن يعمل بما يعلمه ، ويأتمر بما يأمر ، ثم قرن ذلك باعتقاد توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، فالخالق الربى للأشباح بما أنزل من الرزق ، وللأرواح بما أنزل من الوحي والمعبود واحد لا شريك له وهو يجازى على الأعمال ولا يقبل شفاعاة ولا فداء .

ثم أمره بعدئذ بالإعراض عن المشركين بالأيالى بإصرارهم على الشرك ، ولا بمثل قولهم درست ، لأن الحق يعلو متى ظهر بالقول والعمل مع الإخلاص ، ولا يضره الباطل بتزيينه بزخارف الأقوال ولا بالانكباب على خرافات الأعمال؛ ثم هوّن عليه أمر الإعراض عنهم فقال :

(ولو شاء الله ما أشركوا) أى ولو شاء الله ألا يشركوا لما أشركوا بأن يخلق البشر مؤمنين طائعين بالفطرة كالملائكة ، لكنه خلقهم مستعدين للإيمان والكفر ، والتوحيد والشرك ، والطاعة والفسق ، ومضت سنته بأن يكونوا مختارين فى أعمالهم وفى كسبهم لعلومهم وأعمالهم ، وجعل منها الخير والشر ، وإن كانت غرائزهم وفطرتهم كلها خيرا .

(وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل) أى وما جعلناك عليهم حفيظا تحفظ عليهم أعمالهم لتحاسبهم عليها وتجازيهم بها ، ولا وكىلا تتولى أمورهم وتتصرف فيها .

والخلاصة — أنه ليس لك ما ذكر من الوصفين كما يكون ذلك لبعض الملوك
بالتقير أو التراضي بل أنت بشير ونذير ، والله هو الذى يتولى جزاءهم وحسابهم .

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ،
كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ أَيُّومِنَنَّ بِهَا
قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتِ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩)
وَتَقَلَّبُ أَعْقَابَهُمْ فَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي
طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله فيما سبق من الآيات بتبليغ وحيه بالقول والعمل ،
والإعراض عن المشركين بمقابلة جحودهم وطعنهم فى الوحى بالصبر والحلم ، وبين
أن من مقتضى سنته فى البشر ألا يتفقوا على دين لاختلاف استعدادهم وتفاوتهم
فى درجات الفهم والفكر ، وذكر أن وظيفة الرسل أن يكونوا مبلغين لامسيطين ،
وهادين لاجبارين ، فينبغى ألا يضيقتوا ذرعا بما يرون وما يشاهدون من الازدراء بهم
والطعن فى دينهم ، فإن الله هو الذى منحهم هذه الحرية ولم يجبرهم على الإيمان —
نهى المؤمنين هنا عن سب آلهة المشركين ، لأنهم إذا شتموا فر بما غضبوا ، وذكروا
الله بما لا ينبغى من القول ، ثم ذكر طلب بعضهم الآيات ، لأن القرآن ليس من
جنس المعجزات ، ولو جاءه بمعجزة ظاهرة لآمنوا به ، وحلفوا على ذلك وأكدوه بكل
مين مُحَرِّجَةٍ .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ » الآية ، قال : قالوا يا محمد لتنتهين عن سب آلهتنا أو لتنهجون ربك ، فهامهم أن يسبوا أو تأنهم فيسبوا الله عدواً بغير علم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى قال : « لما حضر أبا طالب الموت قالت قريش : انطلقوا فلندخلن على هذا الرجل فلنأمرنه أن ينهى عنا ابن أخيه فإننا نستحى أن نقتله بعد موته فتقول العرب : كان ينمعه ويمميه فلما مات قتلوه ، فانطلق أبو سفيان وأبو جهل والنضر بن الحرث وأميه وأبي ابنا خلف وعقبه بن أبي معيط وعمر بن العاصى والأسود بن البختري ، وبعثوا رجلاً منهم يقال له المطلب فقالوا : استأذن لنا على أبي طالب ، فأتى أبا طالب فقال هؤلاء مَشِيخة قومك يريدون الدخول عليك ، فأذن لهم فدخلوا فقالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا ، وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعه وإلهه ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه فقال له : هؤلاء قومك وبنو عمك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يريدون ؟ قالوا تريد أن تدعنا وآلهتنا وندعك وإلهك ، قال أبو طالب : قد أنصفك قومك فاقبل منهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو أعطيتكم هذا هل أنتم معطى كلمة إن تكلمتم بها ملككم بها العرب ودانت لكم بها العجم وأدت لكم الخراج ؟ قال أبو جهل : وأبيك لعنطينكها وعشر أمثالها فماهى ؟ قال : قولوا لا إله إلا الله ، فأبوا واشمأزوا ، قال أبو طالب : قل غيرها فإن قومك قد فرغوا منها ، قال ياعم : ما أنا بالذى أقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها فى يدي ، ولو أتوني بها فوضعوها فى يدي ما قاتت غيرها ، ففضبوا وقالوا لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتم من يأمرك ، فأنزل الله : (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) .

الإيضاح

(ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) أى ولا تسبوا أيها المؤمنون معبودات المشركين التى يدعوونها من دون الله لجلب نفع لهم أو دفع

ضر عنهم بوساطتها وشفاعتها عند الله ، إذ ربما تُنتج عن ذلك سبهم لله سبحانه وتعالى
عدواً أى تجاوزاً منهم للحد فى السباب والمشامة ليعيظوا المؤمنين . وقوله بغير علم
أى بجهالة بالله تعالى وبما يجب أن يذكر به .

وفى ذلك إيماء إلى أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها ، فإن
ما يؤدي إلى الشر شر ، وإلى أنه لا يجوز أن يعمل مع الكفار ما يزدادون به بعدا
عن الحق ونفوراً منه ، ألا ترى إلى قوله تعالى لموسى وهرون فى مخاطبة فرعون :
« قفولاً له قفولاً لينا لعلنا يتذكروا أو يحشوا » .

(كذلك زيننا لكل أمة عملهم) أى مثل ذلك التزيين الذى يحمل المشركين
على ما ذكر حمية لمن يدعون من دون الله - زيننا لكل أمة عملهم من كفر وإيمان
وشر وخير .

والخلاصة - إن سنننا فى أخلاق البشر قد جرت بأن يستحسنوا ما يجرون
عليه ويتعودونه ، سواء كان مما عليه آباؤهم أو مما استحدثوه بأنفسهم إذا صار ينسب
إليهم ، وسواء أكان ذلك عن تقليد وجهل أم عن بيعة وعلم .

ومن هذا يعلم أن التزيين أثر لأعمالهم الاختيارية بدون جبر ولا إكراه ،
لأن الله خلق فى قلوب بعض الأمم تزييناً للكفر والشر ، وفى قلوب بعضها تزييناً
للإيمان والخير من غير أن يكون لهم عمل اختياري نشأ عنه ذلك ، وإلا كان الإيمان
والكفر والخير والشر من الغرائز الخلقية التى تعد الدعوة إليها من العتب الذى
ينزله الله تعالى عن إرسال الرسل وإنزال الكتب لأجله ، وكان عمل الرسل
والحكماء والمؤدبين الذين يؤدبون الناس عملاً لافائدة فيه .

والخلاصة - أن تزيين الأعمال للأمة سنة من سنن الله جل شأنه سواء
فى ذلك أعمالها وعاداتها وأخلاقها الموروثة والمكتسبة

(ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) أى ثم إلى ربهم ومالك

أمرهم رجوعهم ومصيرهم بعد الموت وحين البعث ، لا إلى غيره إذ لا رب سواه ،
فإنهم بما كانوا يعملون في الدنيا من خير أو شر ويحزيهم عليه ما يستحقون وهو
به عليم .

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننَّ بها) أى وأقسم هؤلاء
المشركون المعاندون بأوكذ الإيمان وأشدها مبالغة ، لئن جاءتهم آية من الآيات
الكونية ليؤمننَّ بأنها من عند الله وأنتك رسول من لدنه .

وفي هذا إيماء إلى أنهم بلغوا غاية العتو والعتاد ، إذ هم لم يعدوا ما يشاهدونه من
المعجزات من نوع الآيات ومن ثم اقترحوا غيرها ، وما كان غرضهم من ذلك
إلا التحكم في طلب المعجزات ، وعدم الاعتداد بما شاهدوا من البينات .

(قل إنما الآيات عند الله) أى قل أيها الرسول إنما الآيات عند الله وحده ،
فهو القادر عليها والمتصرف فيها يعطيها من يشاء ويمنعها من يشاء بحكمته وقضائه
كما قال : « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » فلا يمكنى أن
أتصدى لإزالتها بالاستدعاء والطلب .

روى « أن قريشا اقترحوا بعض آيات فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإن
فعلت بعض ما تقولون أتصدقوننى ؟ فقالوا نعم وأقسموا لئن فعلت لنؤمنن جميعا ،
فسأل المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلها طمعا في إيمانهم ، فهم عليه
السلام بالدعاء فنزلت الآية » .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : « كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم
قريشا فقالوا يا محمد : تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب بها الحجر ، وأن عيسى
كان يحيى الموتى ، وأن ثمود كانت لهم ناقة ، فأتنا ببعض تلك الآيات حتى نصدك ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى شىء تحبون أن آتاكم به ؟ قالوا تحول
لنا الصفا ذهباً ، فقال : فإن فعلت تصدقوننى ، قالوا نعم ، والله لئن فعلت لتتبعنك

أجمعين ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فجاءه جبريل عليه السلام فقال :
 « إن شئت أصبح الصفا ذهابا ، فإن لم يصدقوا عند ذلك لعذبناهم (أى عذاب
 الاستئصال) وإن شئت فأتركهم حتى يتوب تائبهم ، فقال صلى الله عليه وسلم :
 « أتتركهم حتى يتوب تائبهم ، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله : (ولكن أكثرهم يجهلون) »
 (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) الخطاب للمؤمنين الذين تمنوا بحجىء
 الآية ليؤمنوا والنبي صلى الله عليه وسلم منهم بدليل همه بالدعاء ورغبته فى ذلك .

والمعنى — إنه ليس لكم شىء من أسباب الشعور بهذا الأمر الغيبى الذى
 لا يعلمه إلا علام الغيوب وهو أنهم لا يؤمنون إذا جاءتهم الآية .
 (وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) تقلب الأفئدة والأبصار :
 الطمع والختم عليها أى وما يشعركم أنا تقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يدركونه ،
 وأبصارهم عن اجتلائه فلا يبصرونه ، لكأل نبوها عنه وتما إعراضهم عن
 درك حقيقته وتكون حالهم حينئذ كحالهم الأولى فى عدم إيمانهم بما جاءهم أول مرة
 من الآيات .

ونظير الآية قوله : « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلَّوْا فِيهِ يَعْزُجُونَ .
 لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ » .

ومن لم يقنعه ما جاء به القرآن من الدلائل العقلية والبراهين العلمية لا يقنعه ما يراه
 بعينه من الآيات الحسية ، فله أن يدعى أن عينيه قد خدعنا أو أصببتنا بأفة ، فهما
 الا تريان إلا بصورا خيالية أو سحرا مفترى ، وهذه سنة الأولين فى مكابرة
 آيات الرسل .

(ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) العمه : التردد فى الأمر من الخيرة فيه ، والطغيان :
 التجاوز الحد أى إننا ندعهم يتجاوزون الحد فى الكفر والعصيان ، ويترددون متحيزين
 زفيا سمعوا ورأوا من الآيات ، محدثين أنفسهم أهذا هو الحق المبين أم السحر الذى يخدع

عيون الناظرين ؟ وهل الأرجح اتباع الحق بعد ماتبين ، أو المكابرة والجدل
كبرا وأنفة من الخضوع لمن يروونه دونهم .

وإنما أسنده الخالق إلى نفسه لبيان سننه الحكيمة في ربط المسببات بأسبابها ،
ففسوخهم في الطغيان الذى هو غاية الكفر والعصيان هو سبب تقليب القلوب
والأبصار أى الختم عليها ، فلا تفقه ولا تبصر .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، اللهم ثبت أفئدتنا
وأبصارنا على الحق ، واحفظنا من العمه والطغيان فى كل أمر ، واجعلنا ممن يسمعون
القول فيتبعون أحسنه .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الغر الميامين وأصحابه المطهرين .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة فى الليلة
الثالثة من جمادى الأولى من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية .